المنارة التاريخية

فى

مصر الوثنية والمسيحية

اطلب التاريخ الصحيح فتستريحَ وتُريح

تأليف

اسكندر صيفي

المطبعة العصرية

لصاحبها الياس انطون الياس

تليفون ٢٠-٥٦ بحر

شارع علوى رقم ٥ بالقاهرة

ELIAS' MODERN PRESS,
ELOUI STREET, CAIRO.



يطلب هذا الكتاب
من ادارة « سفنكس Sphynx » بالقاهرة
فى شارع المناخ
وثمنه عشرون قرشاً

36 BUCKINGHAM GATE
S. W. 1.

مقدمة

الرائد لايكذب اهلَه ، ولا يبرقش قولَه ، واني استخرت الله وجمعت هذا التاريخ من كتب الافرنج الفضلاء ، المطَّلعين عل اخبار الاغريق والرومان القدماء وسميته

المنارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية

بَيْدَ أنَّه السيَّار المُشرق في بوار المَشرق ، قصدت فيه فكاهة قارئيه والتعليم ، وتنبيه افكار الشبان وذوي الذوق السليم ، واخاله قد اتى رائق الحديث بعيد الغَوْر ، وارجو أن يكون قاضيًا على مثل ذاك الدور ، وذاك الجور ، حتى يُرى المشرق زاهيًا راقيًا ، ولأسباب العمران واعيًا داعيًا ، وألاَّ يفوته الاعتبار ، من عظات هذه الحوادث والاخبار ، ان شاء الله .

ا . ص

بسم الله

الفصل الاول

سنة ٥١ الى ٣٠ ق ٠ م

في قلاوفطرا واخويها ويوليوس قيصر ومارق انطوني

(١) في سنة احدى وخمسين قبل المسيح تُوفّي ملك مصر اليوناني بطليموس نيوس ديونيسيوس بالاسكندرية تاركاً وصيّةً بالملك بعده لابنته البكر قلاوفطرا ولابنه بطليموس الاكبر على انهما يقترنان [1] ويحكمان سويةً . وكان قد ارسل صورة هذه الوصية لمجلس الامة في روما لتحفظ في سجّلاته لوقت الحاجة وبها يقسم على الشعب الروماني بالاقسام الغليظة بالهتهم وبالمعاهدات الودية التي بينه وبينهم ألاَّ يخالفوها ويعهد اليهم بكفالة ولده حتى يبلغ اشدَّه فعند موته اقام المجلس وصياً على الملك القاصر پومبي صديق والده وفي السنة الثالثة من ملك قلاوفطرا واخيها ارسلت الاسكندرية ستين مركبا حربيًّا

(١) كالعادة عند ملوك مصر الاقدمين لا سيَّما بين ابناء العيلات منذ سنة ٢٥٠٠ ق ٠ م

لاسعاف پومپي ضد خصمه يوليوس قيصر ، و بينما الحوادث تشغله كان الخصيّ پوتينوس مربّي الصبي هو الوصيّ فعلاً فاستأثر برأيه واعلن الملك باسم الصبيّ وحده خلافًا للوصية

(٢) فانكرت قلاوفطرا فعله وهربت منه الى سورية وهناك جمعت لها جيشًا وزحفت به الى حدود مصر تطالب حقها من المُلك بالسيف . واذ كانت جنود مصر واقفة في پلوزيوم (١) لمقاومتها وصل الى الاسكندرية پومپي مذعوراً من وجه قيصر المنتصر عليه في فرساليا (٢) يطمع باستقبال حسنٍ ومروءة من مملكة ابن صديقه غير مدركٍ درجة مكر اليونان الذين لما رأوا ضعفه وخذلانه وقوة خصمه اجمعوا رايهم على الغدر بهِ فارسلوا القائد اخلاّس والقائد لوقيوس سپتيموس لاستقباله على المرفأ بظاهر الحفاوة والمودّة ولما وصلوا به الى البر قتلوه . وعلى قول تيودوتوس اليوناني من جزيرة خيوس استاذ الملك الصغير « لا خوف عليهم من عضة الميت » . وكان پومپي ذاك الشهم الخطير الذي تقلّد رياسة مجالس روما ثلاث مرار وله اليد البيضا امام والد ملكهم القاصر !

---

(١) امنع حصون مصر قديماً على ميلين من ضفة النيل الشرقية جهة سورية

(٢) هي تساليا الحديثه

(٣) وبعد قليل وصل ايضاً قيصر للاسكندرية ، وفيها بلغه ما أراحه من ثقل جرم قتل حَمِيه پومپي . وكان ما معه من الجنود لا يزيد عن ثلاثة الاف ومايتي راجل وثمانماية فارس لكنه بصفته رئيس مجلس روما واستناداً على ما بقي من قواته في اسيا لم يحجم عن اصدار امره للعمل بوصية ديونيسيوس . فالملك اظهر الطاعة وبامر قيصر بعث رسولين الى اخلاّس بالاَّ يتحرك بالجنود التي معه في پلوزيوم . لكنَّ مربّيه پوتينوس اسرَّ الغدر بقيصر ايضاً فارسل من قتل رسل الملك بالطريق بينما رسله تجد بالوصول الى اخلاّس لتطلبه مع رجاله للاسكندرية باسرع ما يمكن

(٤) وكان قيصر قد ازعج پوتينوس بالحاحه عليه لوفاء دين جسيم كان له على الملك السالف . وتظلّم پوتينوس للناس من طلبه واحقدهم عليه لا بل انه امر بازالة اواني الذهب والفضة من مائدة قيصر وابدالها باواني الخزف والخشب واخبره بان تلك قد صبّت نقوداً لوفاء دينه ، وقدم لجنوده سُفالة الاطعمة وامتنَّ بها عليهم كغير مندوبين لبلاده

(٥) اما قلاوفطرا فكانت لم تزل ضاربة خيامها بالقرب من پلوزيوم تنتظر نتيجة اوامر قيصر . ثم انها احتالت لمواجهته واثقة بقوّة جمالها لاستمالته لنحوها ، فركبت البحر خفيةً ودبّرت وقت وصولها للاسكندرية ليكون ليلاً ، وبوصولها اليها نزلت بمركب

صغير مع صديق لهـا يدعى ابولودوروس الصيقلي . واذ رأت دخولها للقصر الملوكي علانيـة مستحيلاً ، طلبت الى رفيقها ان يلفَّها ببساط ويلقيها على باب القصر كبضاعةٍ برسم قيصر ففعل ونجحت حيلتها ووجدت نفسها واقفة امام قيصر ، لـكنها بينما كانت قد جاءته سائلةً اذا بها مالـكة قلبه وصاحبة الامر على المملـكة باسرها

(٦) وبهذا الاثناء وصل اخلاَّس بجنوده للاسكندرية، ولم يكن لدى قيصر سوى الجنود التي اتى بها وكان الشعب حاقداً عليه . فاما رأى ضعفه عن الخروج لاخلاس عمـد الى الامتناع بالقصر فتحصَّن وحبس عنده الملك واخاه الاصغر واختهما ارسينويه (اي القمر) وپوتينوس . وكان القصر بالنقطة المسمَّاة بروخيوم على الشاطئ وله سور منيع لجهة المدينة والطرقات منها اليه ضيّقة لاتسمح للعدو ان يقتحمها بعدد كبير من الرجال ، ومع ذلك فان قيصر رأى استلزامه لعدد اوفر على البر ، فامر جنوده التي كانت باقية بالمراكب ان تحرق بعضها وتأتيه للبر . فاما اشتعلت المراكب التي امر بحرقها طار شرارها الى مخازن الرصيف فاتقدت وامتدت النار منها الى الموزيوم فاحرقته وابادت مكتبته الشهيرة مع السبعمائةالف كتاب التي كانت فيها وبهـا وبعلمائها ازدان ملك البطالسة وذريتهم حتى في اخر الزمـان وتسلَّط الجهل على المملـكة وبها كانت

الاسكندرية محط رحال رجال العلم بعد اثينا . ولولا ان قيصر يلاقى فرجًا من اعدائه ولو بهلاك هذه المكتبة لكان ولا شك ترك لنا بتاريخه عن حروبه تأبينًا لائقًا بها . فكانما حال الجريض دون القريض

(٧) ثم ان ارسينويه هربت من القصر الى اخلاَّس . فدقق قيصر المراقبة حينئذٍ على من معه ، واكتشف على دسائس من بوتينوس بها يطمع اخلاَّس بقلّة المؤنة بالقصر ويستنهض عزمه فقتله

(٨) ولبث اخلاَّس محاصراً قيصر فحفر خندقًا بجانب القصر ليمنع مَن فيه من الخروج ، وسلَّح العبيد وسخَّر الاغنياء ، وبلصهم لكن اذ ارسينويه عارضته ببعض تصرفاته ولم يصغَ لكلامها ، عملت على قتله واستبدت بالسلطة فاقامت خصيها غانيميدس قائداً على العسكر وكانت هي بنفسها تخرج للجنود وتشجعهم على القتال وسنها لا يتجاوز الثانية عشرة . واذ كان شرب الاسكندرية من صهاريج يأتيها ماء النيل بأنابيب من الترعة ، حوَّل غانيميدس ماء البحر المالح لتلك الترعة ، فلما اشعر رجال القصر بتغيير طعم ماء صهريجهم هاجوا قلقًا لئلا يموتوا عطشًا . لكنَّ قيصر عرف السبب فأمرهم بالحفر بالارض ، وبليلة واحدة وجد ماءً عذبًا يكاد يكفي البلد كله خلافًا لزعم الجمهور لذاك الزمان بان ارض الاسكندرية ليس تحتها ماء يُشرب

(٩) ثم ان غانيميدس فكَّر فيما يصنع لهلاك المراكب الرومانية وهولا موالي لهُ يحاربهم بها . فاستدعى كل المراكب التي كانت عنده لمراقبة الكمارك بالنيل واصلح العتيق من مراكبه البحرية واخذ اخشاب البيوت لعمل المقاذيف وبمدة قصيرة جهز سبعة وعشرين مركبًا حربيًّا ومراكب غيرها صغيرة كلها بكمال وتمام مراكب قيصر ما خلا الزينة . وكان ماسك الدفَّة بمراكب الاسكندرية يقف تحت خيمة بشكل الخوذة (التي اسمها بالانكليزي هِلْمِتْ) فصار فيما بعد هِلْم اسمًا للدفة بلغة الانكليز . اما قيصر فلم يكن باقٍ عنده من مراكبه الحربية سوى خمسة عشر مركبًا مع بعض مراكب صغيرة ، لكنه اذ كان واثقًا بحنكة وشجاعة نوتيته الرودوسيين امرهم بالخروج الى العدو المحيط بهم وراء جزيرة المنارة ، ورغمًا عن ان ضيق المخرج كان لا يسمح لهم بالخروج باكثر من اربعة مراكب بالدفعة يمكن للعدو كلما برزت ان يحوط بها ويحطمها ، خرجوا اليه وكانوا كلما تصدَّى لهم مركب من مراكبه يديرون له رأس مركبهم المحدَّد الى انهم نظل مراكبهم الاربعة الاولى تمكنوا من اخراج مراكبهم كلها من المرفأ واستعر القتال بين الفريقين حتى احمرَّ وجه البحر من الدماء . وكانت ترى سطوح الاسكندرية والجزيرة غاصَّةً بالمتفرجين وصراخهم يملأ الجوَّ تحريضًا لرجالهم على القتال . اما نوتية قيصر فكان لا حاجة

لهم بالتحريض الامن عند أنفسهم ، فاسروا مركبين واغرقوا ثلاثة من مراكب العدو وهرب منهم الباقون وتبددوا

(١٠) فلتلافي مثل هذا الخطر ثانيــةً ، عزم قيصر على الاستيلاء على جزيرة المنارة فعبّأ مراكبه وخرج اليها فأخذها والقلعــة التي فيها والسد الذي يربطها بالبر بينما كان العدو ماسكاً بالطرف الآخر من الســد قلعة اكبر فقصد ان يخرجه منها ايضاً ، لـكنه لـمـا جرّب ذلك أخفق وارتدت جنوده هاربةً لمراكبها والعدو يضغطها ، ومن شدة الازدحام بالمراكب غطس مركب قيصر الخاص به ولولا انه يرمي بنفســه الماء و يسبح لمركب أبعد لـكان هلك من جملة الثمانمائة مقاتل الذين فقدهم ذاك اليوم . وفقد جبته الرسمية فأخذها المصريون وعلقوها وسط المدينة علامةً لانتصارهم

(١١) ثم حصلت مهادنة بينهم لأن المصريين كانوا قد بدأوا يشكون من جور ارسينويه وخصييها و يطلبون ملـكهم . وكان قيصر يحسن الظن بالصبيّ فعزم على اطـلاقه وردّه اليهم ، فبطليموس الاكبر اظهر عدم رضائه من مفارقة صديقه قيصر وتأسّف و بكى لـكنه اذ بلغ معسكره مسح دموعه وأعاد الـكرة على قيصر

(١٢) وكان قيصر ينتظر أن تأتيــه مراكب سورية بذخيرة فوضع بطليموس مراكبه على مصب النيل جنوبي الاسكندرية وسدّ عليها الطريق

(١٣) انما متريداتس البرغامي كان زاحفًا برًّا بجنود سورية لاسعاف قيصر، وبوصوله الى پاوزيوم فتحها ثم مشى الى مَنَف (١) عازمًا أن يقطع النيل بالقرب من هليوبوليس فقام اليهود هنالك يعارضونه لكنه لمّا اطلعهم على الرسائل التي معه لهم من اخوانهم في اورشليم أنسوا به. ثم لحق به انطيباطر بثلاثة آلاف مقاتل من اليهود، وقيصر ومن معه من الجنود أتوه مقلعين بمراكبهم فحشد لهم بطليموس قواته وكان القتال بينهم أولاً سجالاً الى ان كسروه فالتجأت رجاله لمراكبها وازدحم مركبه الخاص فغطس به وبمن معه وهلكوا بأجمعهم

(١٤) فعاد قيصر حينئذ بجنوده للاسكندرية، ولما وصلها خرج اهلها لاستقباله وامامهم الاصنام يطلبون الأمان، فأمّنهم ودخل المدينة وأول اوامره كان أن يُعمل بوصية ديونيسيوس ولما كان الابن الاكبر قد مات أمر ان يكون أخوه بطليموس الاصغر عوضًا عنه بالملك مع قلاوفطرا، وكانت قلاوفطرا قد ولدت لقيصر ابنًا سماه قيصرون (٢) ورغمًا عن ولعه بها لم يرَ بدًّا من رجوعه لروما

(١) — عاصمة مصر القديمة على اثني عشر ميلاً جنوبي القاهرة وليس لها اثر الان. اما هليوبوليس مدينة الشمس المصرية فهي «عون» التوراة

(٢) — هكذا كان قانون المملكة لكي لا يسقط حق الملكة من ملكها بادخال غريب عنها فيه فكانت تأخذه صاحباً

فتركها تحكم باسمها واسم أخيها الذي صار زوجها الشرعي كنائبين عنه ، وأبحر لروما مع الفيلق السادس الروماني آخذاً معه الأميرة ارسينويه اسيرةً . فلما وصل اليها علم بأن مجلس الامة فيها قد سمّاه اوتوقراطاً من ستة اشهر وكان مارق انطوني رئيس اصطبله النائب عنه في تلك المدة

(١٥) ودخل روما قائداً الاميرة ارسينويه موثوقةً بالاغلال وراء مركبته. وكان بموكبه مركبة فوقها صنم آله النيل واخرى تحمل تمثال منارة الاسكندرية و وراءها زرّافة لم تكن الرومان عرفت شكلها من قبل. ثم بعد قليل وفدت عليه زائرةً الملكة قلاوفطرا مع زوجها الشرعي وعمره اثنتا عشرة سنة وكانا نزيلي داره مدةً من الزمان

(١٦) ولما كانت السنة الخامسة من دخوله الاسكندرية واذ قلاوفطرا نزيلة داره انتقض عليه الرومان لزعمهم أنه قد استبدّ فيهم ، وقتلوه . فتحيّرت قلاوفطرا في امرها وظنت أنها تستميل الرومان اذا عرضت على مجلس الامة اقامة ولدها قيصرون شريكاً لها بالملك . فالتجأت الى قيقرو ليعضدها لكنه كان يبغضها لتجبرها فرفض طلبها وهديةً كانت قد ارسلتها اليه ، فلما انكرها وجلت وهربت راجعةً لمصر

(١٧) فمن هذا الوقت ضيّعت مصر استقلالها وأمست قلاوفطرا في خطر من الرومان ان لم يكن لها زبون منهم فحوّلت انظارها

اولاً (وقيل اكثر من ذلك) نحو سكستوس پومپيوس الذي كان على رأس اسطول روماني عظيم وبيده صقليا ويطمع برئاسة روما ، لكنّ اوقتاويانوس بعد قليل انتصر عليه ولاشى قواته فلم يفدها شيئًا

(١٨) وكان قيصر قد ترك في مصر جيشًا رومانيًا وافراً لحراسة الملكة ظاهراً ، لكن حقيقة لحفظ السلطة الرومانية . فكان هذا الجيش لا شغل ولا عمل له الا البطر والفساد وكان شرّ قدوة للجمهور

(١٩) أما قلاوفطرا فريثما كان اخوها ولداً قاصراً لم تبالِ ان يكون شريكاً لها بالملك ، لكنه اذ بلغ اشدّه قتلته واخذت ابنها قيصرون شريكاً لها

(٢٠) وبوجه الاجمال فان هذا الزمان كان زمان فسق وفجور واسراف وفتن في مصر ، فلا نجد فيه شيئًا من نتائج العقل والعلم ، الاَّ ان الرياضيات كان اهمالها اقل تأثيراً من اهمال الشعر والفلسفة . فان سوزيجينوس كان اول علماء الفلك في ذلك الزمان في مصر وبمساعدته أصلح يوليوس قيصر تقويم السنة المنسوب اليه وهو الذي بعد تحديده ايام السنة من ثلثمائة وخمسة وستين يومًا وربع يومٍ بدّل رأس السنة ثلاث مرار لارتيابه بيوم الاعتدال ، وذلك لأن المراقبة اللازمة كانت في ايامه محصورة بيومين من السنة اذ تمرُّ الشمس بخط الاستواء

٢١) ومن علماء الحساب والهندسة في ذلك الزمان كان الرياضي فوتينوس وديديموس بالفقه ، وديسقوريدس بالطب ، ولهذا كتاب نفيس بخصائص الحشائش والاعشاب والمعادن للطب ، وبالسموم وعلاجاتها تداولته النـاس اجيالاً عـديدة الى ان اضعفت الاكتشافات الحـديثة رأيه . واشتهر ايضاً بهذا الزمان الجِراحيّ سيرابيون . قيل عن تجربة لا عن علمٍ

٢٢) وبهذا الزمان كان بناء المعبد الصغير في هرمونتس بالقرب من ثيبه للآلهة مندو او الشمس على اسم قلاوفطرا وابنها قيصرون ، وبالقرب منه حوض ماء للزوم الفرائض الدينية . وهـذا المعبد يختلف عن المعابد القديمة بضعفه عنها . وهو الوحيد في ثيبه للاله مندو . مع انها كانت تعرف هذا الاله من عهد رمسيس الثاني لـكنه اصلاً من الهة الارياف وانما أتى زمان عبدته فيه ثيبه بدلاً من « عمون را » . ثم رجعت لعبادة هذا الى ان شيد بذاك الزمان المعبد الصغير لمندو الذي سنراه بالعهد التالي قد صار من آلهة النوبة

٢٣) اما موت قيصر فلم يكسب الرومان شيئاً من الحرية المندوبة والراحة المرغوبة ، لا بل انه زاد بالنزاع فيما بينهم وببلايا الفتن الداخليـة . ثم تغلَّب حزب قيصر على غيره من الاحزاب بعزم

اوقتاويانوس ابنه الشرعي وصديقه مارق انطوني . وعادت السلطة لهذه الفئة ونيرها أحكم ربطاً من نير قيصر وأعظم وقراً

(٢٤) لا يظهر لنا جلياً كيف كانت أميال قلاوفطرا لدى النزاع بين مارق انطوني وحزب قاتلي قيصر ، وربما انها كانت تنتظر لترى مَن الأقوى لتميل اليه فان اليانوس كان قد أتاها من قبل دولوبلاّ يسألها أن تبعث ما يمكنها من الجنود لمساعدة انطوني في سورية ، فأعطته أربع فرق من جنودها الرومانية . لكنه بوصوله لسورية انحاز لقاسيوس خصم انطوني . فهل كان هذا منه غدراً بقلاوفطرا أم بتواطيء منها ، لا نعلم ؟ انما المعروف هو ان قاسيوس كان يشكر لاليانوس اكثر من شكره لها . ثم لما سيرابيون والي قبرس حشد ايضاً لما كان يظنه الحزب الأقوى وبعث مراكبه لخدمة قاسيوس كانت قلاوفطرا تجهز عمارة كبيرة . لكن بما ان قبل خروج هذه العمارة كانت الحرب قد انجلت عن انتصار انطوني وقتل بروتوس وقاسيوس قالت أنها انما كانت تجهّزها لمساعدة اوقتاويانوس وانطوني فأرسل انطوني يطلبها لمواجهته في طرسوس لتبرهن له ذلك

(٢٥) فالرسول اليها ديليوس لاقى منها اكراماً وحفاوة فلاطفها وأزال روعها مشيراً عليها أن تتكل على جمالها فجهزت مراكبها وشحنتها بالهدايا النفيسة واقلعت لطرسوس واثقة بالغلبة على قلب قاضيها كما

غلبت على قلب قيصر من قبل وهي أحدث سناً واقل حنكة فدخلت مراكبها نهر قدنُس الذي نسمّيه العاصي برونق باهر جداً فكان مركبها محلّىً مؤخّره بالذهب وشراعه من القماش الأحمر ومقاذيفه من الفضة تتحرك على نغمات الأوتار وهي لابسة ثوباً شفّافاً ومتكئة على وسادة من الحرير يظللها سرادق من الديباج وحولها غلمان كالأقمار يروّحون لها بالمراوح وآماتها الفتيات لابسات ما خفّ وشفّ يمسكن حبال الحرير المتصلة بالشراع والدفة واذ دنت من البر حمل النسيم روائح مجامرها العطرة لاهالي طرسوس الذين كان الشاطيء غاصّاً بهم وانطوني جالساً بينهم على اريكة لاستقبالها .

يا سالكاً بين الأسنة والظُّبى . اني اشمُّ عليك رائحة الدم !

(٢٦) وطرسوس على نهر العاصي طرف احراش سفح جبل طوروس الفاصل بينها و بين قبائل افريجيا والفينيقيين كان نصفها من اليونان والنصف الآخر من السوريين وكان لها شهرة عظيمة ببناء المراكب والتجارة نظراً لحسن موقعها وخشب احراشها فكان تجارها اصحاب غنى واسع واداب ولهم فيها القصور الشائقة والمدارس للفنون والعلوم اليونانية وكان يخرج منها علماء مفلقون عرفت روما منهم اكثر مما عرفت من علماء الاسكندرية واثينا لأن المراكب كانت كثيرة

عندهم تحملهم أينما شاؤوا فأتينو دوروس قوريليون كان منهم أتى روما وصار استاذاً لقاتو وأثينودوروس بن صندون مثله صار استاذاً لقيصر ونستور صار استاذاً لمرقلوس ومنهم كان ديميتريوس اول عالم نزل شطوط بريطانيا وبعد جيل من زمان هؤلاء الرجال خرج من مدارسها ابولونيوس الوثني المدعي بالمعجزات واخيراً بولس الرسول فالفرق بين مبادىء هؤلاء الرجال وما شاهدته طرسوس من اطوار قلاوفطرا كان عظيماً جداً

(٢٧) ولما نزلت قلاوفطرا للبرّ وسلّمت على انطونى دعته واركان حربه لوليمة كانت قصاعها من الذهب المحلّى بالحجارة الكريمة والسرادق واثنتا عشرة وسادة فيه كانت كلها من الديباج الفاخر واذ اظهر انتوني اعجابه من مثل هذا الغنى اهدته الاواني كلها ثم دعته باليوم التالي وارته من الغنى والزينة اعظم مما رآه بالأمس وبعد الغذاء اهدته ايضاً ما كان على المائدة من اواني الذهب واهدت اصحابه الوسادات التي جلسوا عليها

(٢٨) وظلّت تولمه اياماً متوالية على هذا النمط حتى انه لامها على هذا الاسراف فقالت له انتظر غداً لمّا اولمك وليمة قيمتها عشرة الاف ستسترتيا اي ستون الف ليرة انكليزية من عملتنا الدارجة الآن فأجابها بأنه يستحيل عليها انفاق مبلغ كهذا على وليمة فلما كان الغد أولمته كالعادة أو أحسن الا انه لم يرَ ما يعتبره خارقاً فقال لها أرينا

نقويمك لهذه الوليمة لنعرف الحقيقة عن كلفتها التي زعمتِ بالأمس انك ستنفقينها وكان باذنيها لؤلؤتان تثمنان بعشرة الاف سيسترْيا فدعت بقدح من الخل والقت فيه احداهما وشربتها وكادت تفعل كذلك بالثانيـة لولا ان القائد بلانكوس يمسك بيدها و يصدها ويحكم بأنها صدقتهم و بقيت تلك الدرّة الى ان قُطعت نصفين في مستقبل الايام صيغا قرطين لصنم وينوس بالبانطيون في روما ولشهرتهما بما كان من قصتهما صارا يثمنان بقيمة الدرتين الصحيحتين

(٢٩) فكذا لطف وذكا ، وكذا جمال وصبا أخذن على عقل الشاب وقلبه فراح صريع الغرام . وبينما كان يقصد محا كنها وجد نفسه محكومًا عليه ومقيداً بسلاسل لا انفصام لهـا لدرجة أنه امتثالاً لارادتها سمح بخنق شقيقتها أرسينويه في معبد ديانا بافسس بعـد عفوه عنها ظنًا منه بأنه يراعي بذلك احساسات قلاوفطرا . ومن بعض كمالات هذه الملكة العقليـة كان اتقانهـا لاكثر لغات الشرق والغرب

(٣٠) تلك كانت حالة انطوني بينما كانت زوجتـه فولويه تهتم بتقوية حزبه في روما ضـد مطامع أوقتاويانوس وبينما خصمه الآخر لابيانوس يتهـدده بجنود بحر الخَزَر حتى انه رافق قلاوفطرا للاسكندرية وسكن معها غير فائق من سكرته بهواها وهي

تؤانسه وتمسح قدميه بالعطر (كالذي أهرق على رأس السيد المسيح فيما بعد) وكان الرطل المصري منه يباع بأربعمائة دينار في قماقم من الجبسين من عمل بلد الأبسترون في الجهة الشرقية من النيل (١) ومن اسم هذا البلد أخذ الافرنج اسم ألاَبَسْتر وكان يُتاجَر بهذا العطر من مصر الى دجلة

(٣١) وفي السنتين العاشرة والحادية عشرة من ملك قلاوفطرا لم يتم وفاء النيل فأقحطت مِصْر وحصلت مجاعة فيها ومن أثر ذلك ما وجد مكتوباً من تشكرات كهنة ثيبة (٢) لقاليماخوس جابي الخراج لرفقه بالناس في تلك الأيام و بسبب نقص الوارد من الحبوب المعينة لفقراء الاسكندرية حُرِم اليهود منها فكان ذلك خرقاً لمساواتهم الشرعية باليونان وابتداء عداوة طويلة بين الفريقين لا سيما وان اليونان كانوا ينظرون الى كل شرقي كبربري ورقيق واليهود لا يرون كفواً لهم بالدنيا سوى العرب

(٣٢) ولما كان كل استناد قلاوفطرا على جيش الرومان كان كل اهتمامها بمرضاة انطوني فولدت له ابناً سمته بطليموس وتوأمين سمتهما اسكندر هاليوس أي الشمس وقلاوفطرا سيلينه أي القمر وكانت نديمته بالشرب وشريكته بالقمار ورفيقته بالقنص والصيد

---

(١) على خط طرف جبل سينا

(٢) عاصمة الصعيد قديما على جنبي النيل تجاه راس المرج الكبير وهي الان الاقصر

واستعراض الجيش حتى اذا قام بالليل يتجسس كانت تصحبه بزي غلام كي لا تترك له وقتاً الا و يراها بجانبه

وكنتَ اذا أرسلت طرفك رائداً

لقلبك يوماً أسلمتك المحاجرُ

(٣٣) ثم أتاه ابنه الاكبر من فولويَه زائراً وأقام معه مدةً بهناء ورغد عيش واذ هم لاهون آمنون وأنطوني يرى الدنيا طوع يديه وفدت عليه الكتب من روما تخبره بأن أوقتاويانوس قد نفى زوجته فولويَه وأخاه من روما واستبدّ بالحكم فهرول راجعاً اليها لكنه لم يصل الا بعد أن كانت زوجته قد تُوفّيت فتزوج أوقتاويا أخت أوقتاويانوس أرملة مرقلّوس لغاية سياسية ظنها تفيد حزبهُ

(٣٤) وفي تلك السنة أي ٣٩ ق . م أتى هيرود بن أنطيباطر مصر قاصداً روما ليطلب اليهودية مملكة له فاستقبلته قلاوفطرا بالاكرام وتلطفت اليه ليبقى عندها أميراً على جنودها لكنه اذ كان يطمع باستقلاله لم يغره عرضها عليه الأمارة فشكر لها واعتذر وأقلع الى روما وهناك ساعده أنطوني على غايته وبواسطته منحته السناتو كرسي اليهودية فعاد لسورية ليجمع عسكراً للاستيلاء على فلسطين ولما نشبت الحرب بين أنطوني وأوقتاويانوس كان هيرود قد دخل أورشليم بمساعدة سوستوس وكيل انطوني

(٣٥) و بالسنة التالية أتى أنطوني بنفسه لسورية فبعث يطلب قلاوفطرا اليه و بوصولها أهداها ما ربما كان أثمن هدية من عاشق لمعشوقته فانه أقطعها فينيقيا والبقاع وقبرس وقسماً من سيليقيا جانب جبل طوروس وقسماً من اليهودية ومن النبطية فلم يزدها ذلك الا طمعاً فانها طلبت منه أيضاً رأس هيرود ورأس مالاك ملك النبط لأن الأول كان قد أشار على أنطوني بقطع علاقاته معها التي كانت سبب الاختلاف بينه و بين أوقتاويانوس ولأن الثاني كان حاقداً عليها . فلم يطاوعها انطوني على طلبها هذا لكنه زاد لها أرض البلسم المحيطة باليهودية ومائتين الف تالنت أي قيمة ثلاثين الف ليرة من عملتنا الدارجة الآن من خراج اليهودية . ولمّا رأت نفسها على رأس مملكة عظيمة كهذه أخذت تؤرخ ملكها ثانية من تلك السنة و بعد ان رافقت أنطوني للفرات بزحفه ضد أرمينيا عادت لمصر عن طريق دمشق واليهودية حيث استقبلها هيرود بلياقة اكراماً لأنطوني وضمن لها الخراج الراجع لها من اليهودية ثم مشى بعض فراسخ بوداعها

(٣٦) ومع كل طيش هذه الملكة فانها كانت من ذاك النسل محب العلم وجامع مكتبة الموزيوم التي احترقت بحصار قيصر فبطلبها الآن أهداها انطونى مائتين الف كتاب من مكتبة برغاموس(١)

(١) برغامة من اسيا الصغرى ومن اسمها اشتق الافرنج اسم الرق بلغاتهم « بارشمن » نظرا لشهرة الرق المصنوع فيها بذاك الزمان

وضعتها في معبد سرابيس وبها عادت الاسكندرية اول مدينة بالدنيا بالعلوم حتى بآخر الزمان وانحطاط مصر لدرجة ولاية رومانية لا بل وخمسين سنة بعد ذلك حينما الفيلسوف اليهودى فيلو اتى الاسكندرية وسأل اين هم بطالستها فكان لسان حالهم يجيبه ها هنا في مكتبة السيرابيوم

(٣٧) ولنرجع الآن لأنطوني فانه بعد انتصاره على الأرمن عاد للاسكندرية قائداً ملكهم أرطاوَزْدِس أسيراً وراء مركبته ثم دعى الناس للجمنازيوم وجلس هناك مع قلاوفطرا على كرسيين من الذهب واعلن للجمهور اتخاذها ابنها قيصرون شريكا لها بالملك وأعطى أولادها الآخرين لقب ملوك أبناء ملوك وأقطع ابنها اسكندر أرمينيا وميديا والجرجان متى تم فتحها وأقطع بطليموس ابنها الآخر فينيقيا وسورية وسيليقيا جانب جبل طوروس وكانت قلاوفطرا لابسة ثوبًا كالالإاهة ايزيس بصفة ايزيس الجديدة وألبست ابنها اسكندر جبة وعمامة مجوهرة على شكل المديانيين وألبست بطليموس جبة طويلة وقلشينًا وعراقية عليها اكليل مجوهر أشبه بتاج خلفاء الاسكندر . وكان أنطوني لابسًا تاجًا ومقلداً سيفًا شرقيًا وأهدى بذاك المحفل لقلاوفطرا كافة التحف التي أصابها من بارثيا أي بلاد الخزرج وأسيره طغران بن ملكهم

(٣٨) لكنه اذ كان نفوذه بهذا الاثناء قد سقط في روما مالبث قليلا حتى صار يخشى من تغيير قلاوفطرا عليه ويخاف أن تغدر به ورغمًا عن ولعه بها صار لا يأكل ولا يشرب عندها مالم تقاسمه المأكول والمشروب . فاستاءت من ذلك وهي لم تزل مخلصة له ولتبرهن له صفاء نيتها لنحوه . دعته يومًا للغذاء بعد ان اخذت زهوراً كانت تكلل رأسه بها على السماط وغمستها بالسم الناقع . ولما جلسا على المائدة رفعت من رأسها زهوراً ورمتها بقدحها كأنها تتأنق برؤيتها بالقدح وشربت فاقتدى بها انطوني لكنه اذ مال بالقدح الى فمه خطفته منه وأخبرته بأنه مسموم ولو أرادت موته لتركته يشرب ثم أقنعته بالبرهان بوجود ذاك السم فسكنت روعه وعاد الى ثقته باخلاصها

(٣٩) واول النقود المضروبة بعهد قلاوفطرا كانت ترى عليها صورتها من جهة وصورة نسر ام قرن من الجهة الاخرى واسم الملكة قلاوفطرا . ثم اذ ولدت لأنطوني أولاده ضربت النقود بصورة انطوني فاتح أرمينيا من جهة وصورة الملكة قلاوفطرا أم الملوك أبناء الملوك من الجهة الاخرى ومنها بصورة انطوني أمبراطوراً من جهة والالاهة الفتية بصورة قلاوفطرا من الجهة الاخرى . وربما أن قلاوفطرا كانت آخر ملوك اليونان الموصوفين بآلهة على عادة القوم قديمًا من وجه التحبب والاكرام وليس من وجه الحقيقة

أو ربما أصلاً بمعنى ان القائم بالامر أميراً كان أو سيداً أو رئيساً هو كاله لمن تحت سلطته بالنيابة عن الآلهة الغير منظورة وهذا فيه نظر لمن تبصر

(٤٠) انما بموت يوليوس قيصر و بعد قليل منه بموت بروتوس وقاسيوس مزاحمي أنطوني على رياسة روما . وجد هذا نفسه الزعيم الاوَّل بين الرومان لكن كثيرين منهم كانوا يكرهون سلوكه في مصر وكان أوقتاو يانوس قد ابتدأ أن يجعل لنفسه حزباً قوياً ضدَّه فبأول الامر لم يؤثر ذلك على مركز أنطونى في روما فضربت نقودها تلك السنة بصورته من جهة وصورة النسر المصري من الجهة الاخرى وسمَّى المجلس نائباً له صديقه سوزيوس ريثما يحضر لاستلام زمام رياسته فضربت مصر نقودها النحاسية حينئذ مكتوباً عليها من جهة أنطونى قنصل لثالث مرة ومن الاخرى الملكة الالاهة الفتية انما قبل سفره منها كان قد تغير رأى المجلس فيه وعُدَّ عدوًّا لروما لكن اذ لم يرد أوقتاو يانوس أن يشهر الحرب ضدَّه أشهره ضد قلاوفطرا أوكما ادَّعى ضد حاشيتها مفسدي أخلاق أنطوني وهم عبدها مرديون وأمتها ايريس وامرأة من خواصها تدعى خرميون

(٤١) وفى بداية السنة التي كانت ستنتهي بموقعة اقتيوم [1] بين أنطوني

---

(١) راس خليج ارتا من بلاد الاغريق الغربية المسماة بيريا حيث خير الدين سنة ١٥٣٨ م فاز على عمارات اسبانيا والبندقيه والباباوية

واوقتاو يانوس كان هذا قد تسلَّط على ايطاليا والغال واسبانيا وقرطاجنه يقود ثمانين الفًا من المشاة واثنى عشر الفًا من الفرسان وله مائتان وخمسون مركبًا حربيًا بينما انطوني كان الآمر في مصر والسودان والقيروان ولديه مائة الف من عساكر المشاة واثنى عشر الفًا من الفرسان وخمسمائة مركب وكانت كل ملوك المشرق من انصاره فكانت قلاوفطرا موقنة بالنصر تحلف برأسها انها ستُرى عن قريب جالسة على سرير روما وكان ذلك جائزاً لولا ان انطوني يأخذها معه لميدان الحرب و يقضي على نفسه وعليها بالفشل والهلاك لأنه اذ كان يقاتل اوقتاو يانوس بعمارته على شطوط بحر الروم بالقرب من اقتيوم جاء وقت خاف فيه عليها فهرب بها طائشًا عوضًا عن أن ينضم الى جنوده البرية التي كانت أوفر من جنود اوقتاو يانوس و يقودها الى النصر

(٤٢) ولما وصل بها الى ليبيا أنزلها هناك وأرسلها برًّا للاسكندرية ور بما أنه كان ينوي الرجوع لموقع الحرب و يفعل ما أشرنا اليه لكنه لم يفعل بل أقلع هو أيضًا للاسكندرية هاجراً جنوده التي انضمت حينئذ الى خصمه وهو اذ وصل للمرفأ اعتزل بنفسه كئيبًا مدة قصيرة بصومعة هناك ثم خرج منها ودخل المدينة ورجع الى ما كان عليه من اللهو والطيش مع محبو بته مهملا أخذ أي احتياط من الخطر الذي كان يتهدده برًّا وبحرًّا

(٤٣) هذا مع ان سكان مصر كانوا بذاك الزمان يبلغون زهاء ثلاثة آلاف الف نسمة فكان يمكن أن يخرج منهم ثلثمائة الف مقاتل وكانت ثروة الاسكندرية لم تزل كافيةً لاعالتهم لكنهم كانوا قد ألفوا الذل كالعير فلا يبالون من يركبهم من الحكام فلم يحركوا ساكنًا لنصرته ولما وصل أوقتاويانوس الى بلوزيوم لم يجد سوي حامية ضعيفة كان قائدها سلوقوس الذي سلم له بدون مدافعة ولهج الناس بأنه فعل ذلك بأمر من قلاوفطرا لكنها أنكرته ولتبريء نفسها أمام انطوني سلمت له أولاد سلوقوس وزوجته لينتقم منهم ان شاء

(٤٤) ثم وصل اوقتاويانوس لضواحي الاسكندرية ونصب خيامه بعيداً من بابها الشرقي فخرج اليه انطوني برجاله وأزاحه عن مكانه ذاك اليوم الا أنه لما أراد الخروج في اليوم التالي ودعى جنوده فلم تجبه الا شرذمة حفظت ذمته فكرّ بها مشعراً بخيانة قواده فلم يطق الوقوف امام عدوه فانهزم هاربًا لداخل السور

(٤٥) فاليهود فرحوا من خذلان قلاوفطرا وأظهروا ارتياحهم من فشل حاميتها وصارت هي تلعنهم وتشتهي ذبحهم ولو بيدها وكان انطوني يرى تواتر رسل اوقتاويانوس اليها فاشتبه بصدقها وهي خافت من غضبه فهربت لحصن كانت قد بنته بالقرب من معبد ايزيس آخذة معها كنوزها من ذهب وفضة وعاج وابنوس وكمية من القنب كأنها تقصد ان تضرم النار بالمكان وتموت فيه حريقًا بثروتها ثم ارسلت

تخبر انطوني بأنها قد ماتت فلما اتاه الخبر ظن أنها قد سمّمت نفسها فبكى لفقدها ولم يرضَ ان يعيش بعدها فاستل سيفه وشكه بصدره حتى اشرف على الموت وطار الخبر الى قلاوفطرا بما كان منه فانتحبت وبكت وطلبت احضاره اليها فحمله خدمه الى الحصن ولكون قلاوفطرا كانت قد سدّت بابه خوفاً من ان يُغدر بها وتقع بيد العدو ارخت له سلة من كوة الحصن تنشله بها فكانت تسحبه بمساعدة امرأتين معها بمنظر من الجمهور والدموع تكاد ان تعمي بصرها وهو ملقىً مضمخ بدمه رافعاً يديه نحوها فرحاً بسلامتها لكنه بعد وصوله اليها مات

(٤٦) وبهذا الاثناء دخل اوقتاويانوس المدينة راجلاً وبرفقته اريوس فاعطى السكان الامان وحرّم على عساكره السلب اكراماً لطلب رفيقه ثم سأل عن اولاد قلاوفطرا من انطوني وتلطف بهم اما ولدها قيصرون فكان هارباً نحو السودان مع مربيه رودون ومع انه يكون ابن خاله قيصر ذاك الذي تبنّاه وسماه باسمه اي يوليوس قيصر اوقتاويانوس لم يشفق على حداثة سنه وضعفه بل ارسل من لحق به وقتله بالطريق . قيل بتواطئ من مربيه اما المتزلفون الى هذا الظالم فمنهم من يقول بان اريوس كان المشير عليه بقتل الصبي ومنهم من يدّعى بانه كان ابن

قلاوفطرا من اخيها لامن قيصر فينتحلون عذراً لصاحبهم الذي اعطوه فيما بعد لقب اغسطوس

(٤٧) وامر اوقتاويانوس بالاحتياط بقلاوفطرا كي لاتقتل نفسها وهو يريد ان تعيش لتزيّن بها موكبه عند ايابه الى روما فراح يزورها ويعزيها بفقد انطوني واذن لها بدفنه ووعدها بحفظ كرامتها وتهددها بقتل اولادها ان اضرّت بنفسها لكنها لم تطق الحياة طويلا فيقال بانها اخذت سما ام ماتت من لسعة زنبور ام حية أُتيَ لها باحديهما في سلّة عنب وعمرها اذ ذاك تسع وثلاثون سنة ودفنت بجانب انطوني باحتفال ملوكي

(٤٨) ومعنى اسم قلاوفطرا « عزّ والدها » فكان اسما لطيفاً شريفاً شائعاً بين اليونان والمقدونيين زهاء اربعمائة سنة حتى دنسته هذه الملكة بسيرتها الردية فقلما سموا به بناتهم بعدها

(٤٩) ورأت روما فرجا بموت قلاوفطرا وخلاصاً من خطر وقوع اوقتاويانوس بشراكها والتلوث بعار فجورها

(٥٠) سوى اننا قد كنا للان ننظر الى الرومان عن بعد ولا نرى منهم الا الشهامة والمروءة فكان بالصدر الاول يكفيهم الشكر من ابيفانوس وفيلوماطر وعرجتيس الثاني لمساعدة ابدوها اما الان فصرنا نرى البحر لايرويهم والاهواء الذاتية والمطامع تقودهم رويداً رويداً الى الاستئثار بالسلطة والفتوحات لاتزيدهم الاّ

طمعا فانهم ملكوا اولامقدونيا من باب المدافعة ثم القيروان بحيلة ثم قبرس بلا سبب وصرنا نرى رجال السناتو اشد رغبة في الرشوة من الامة بالفتوحات والولاة كالذئاب الخاطفة حتى انهم لما تفاقم الفساد بينهم لم يروا دواءً له الاَّ جعل اوقتاويانوس اوطوقراطاً اي حاكماً مطلقاً يعمل برأيه وامره فيهم ليضع حدًّا للاختلال والحروب الداخلية وهو اذ ذاك قد ضمَّ مصر الى مملكته والغى استقلالها

(٥١) وهذا كان اخر العهد بالبطالسة الذين افادوا العلوم والمعارف مالم تُفِدْهُ دولة قبلهم لا سيما ان بالرياضيات والتشريح والمنطق كانت الاسكندرية القطب الذي عليه مدار علوم المسكونة ولو انها قصَّرت جليًّا بعلم الاقتصادوالتاريخ وانحطَّت عن درجة اثينا بالفلسفة وسلامة الذوق

(٥٢) واذا امعنا النظر باسباب عمران وخراب هذه الدولة رأينا بان كلاًّ من فضيلة ام رذيلة من حكمة ام خُرق من اقتصادٍ ام اسرافٍ قدلاقى نتيجته وجنى ثماره فان الذهب المصري الذى جذب اليونان اولاً لمصر وكان الوسيلة لاعلاء شأن دولتهم فيها هو الذي ادَّى اخيراً الى فساد طبائعهم وبطرهم واضمحلال نفوذهم

(٥٣) لاننا اذ كنا نرى في عهد بطليموس سوطير اي المخلّص اقتصادا بالمعيشة ونشاطاً على العمل واكراماً لاهل الفضيلة والعلم وسهرا

على اقامة العدل وتمهيد اسباب الراحة وتحصين الاطراف و بناء المدارس وتسهيل غايات التجار واستشارة العقلا مما جعل الاسكندرية زينة الدنيا ومحط رحال زهرة رجال اليونان والسوريين صرنا نرى بالزمان الاخير فساداً يعم الكبير والصغير

(٥٤) ولمَّا خَلَفه ابنه فيلادلفوس قبل تاريخنا هذا وجد مملكة واسعة مطمئِنَّة فصدَّق امانيها وجرى بها في درجات التمدن والعمران الى ان صارت اسواقها غاصَّة بالتجار ومدارسها بالطلبة وفتوحاتها تتوالى برًّا وبحراً وصار هو اول ملوك زمانه بالقدرة والغنى والسيرة الحسنة حتي انه اعتُبر فيما بعد اعظم ملوك هذه العائلة

(٥٥) فكان المصريون بعهد هذين الملكين من اسعد الناس واحسنهم حالاً اخذين عن اليونان بعض فنونهم وعاطيهم دينهم فان الملك عرجتيس كان مصريًا اكثر مما كان يونانيًا يغار على عظمة المعابد واكرام الكهنة كانه عامل بالوصية الدلفية « ان الالهة يقتضى اكرامها في كل محلٍّ طبقًا لشريعة ذاك المحل » الاَّ ان الجند لم يكن حينئذٍ من هذا الروح فضعف تأثير الكهنة على الهيئة الاجتماعية واختلت المبادي عن الزمان الاول

(٥٦) وبالعهد التالي ظهرت آفات هذا الضعف والخلل فان فيلوباطر كان ملكاً فاسقًا تاركا الحكم لنسوته وحاشيته غير مكترث بالحوادث لا الداخلية ولا الخارجية ظانًّا ان مملكته لم تزل

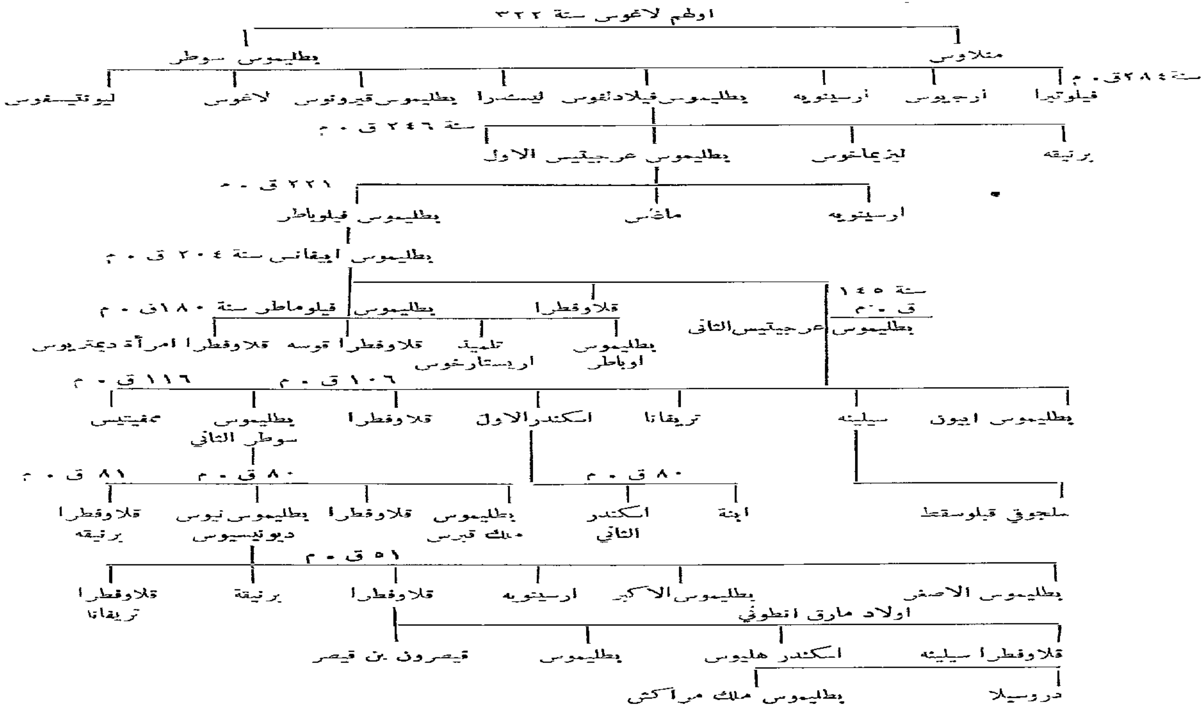
اعظم ممالك الدنيا بينما لم يبقَ لهـا حينئذٍ حقيقه من العظمة الاَّ الصورة والتقدم يخـدم روما فى قرطاجنه وسوريه تحت قيادة انطيوخوس العظيم ثم مات فيلو باطر مخلّفا لولده الصغير عرشًا يكاد ان ينقضّ

(٥٧) فوزراء الملك القاصر وجدوا دولة لا راس لها ولا جيش وخزينة فارغة وشعبًا بلا مروّة ولا فضيلة فاستعانوا بالرومان خوفًا من تعدى ملوك سورية ومقدونيا

(٥٨) ومن ذاك الوقت اصبحت دولة البطالسة تحت حماية روما الى ان صارت ملوكها تطلب اعانة الرومان تارة ضد اعدائها وتارة ضد رعاياها واحيانًا تستشير السناتو بمصالحها واذا لم تعمل برائها قدمت لهـا عذراً فكانت الاحكام على هذا المنوال تدخل رويداً رويداً بيد السناتو الى ان الظروف خوّلتها الاستيلاء على حوران واسيا الصغرى والقيروان وقبرس ووصل البطالسة لدرجة التملّق لشرفاء روما فلم يعسر بعدئذٍ على اوقتاويانوس الملقّب باغسطوس ان يضمّ مصر لملك الرومان

(٥٩) وللبطالسة بنايات من معابد واساطين كان يظن بانها من قبل زمانهم حتى فك كتاباتهم الدكتور ينج الانكليزي والاَّ فان اعتناءهم كان شديدا بحفظ التقاليد القديمة والتباين الذي يظهر فيها هو مالا بدّ منه على طول الزمان في كل بلاد فان البنايات الجديدة

شجرة عائلة آل لاغيدا أو البطالسة



صارت اقل ضخامةً ومكننا وقطع المسلاّت قلّ ونحت الاصنام العظيمة وتشييد الاهرام توقّف وعمد المعابد تغيّر شكلها فان التي كانت قديمًا تُرى رؤوسها محفورة بهيئة ورق الغزار صارت ترى مكلّلة بشكل زهر البشنين واغصان النخل والتي كانت رؤوسها ضخمة تناسب الحمل الذي فوقها صارت ترى احياناً بشكل رأس امرأة نحيف ما تعوّد على حمل اثقال ولا صخور

(٦٠) اما الدين فنراه في زمان البطالسة قد انتقل لآلهة جديدة ام قديمة بصورة جديدة ، فان الاله هنيمو وهو النيل قد صار بصورة آله النهر اليوناني يدفق ماءه من ابريق والقمر الذي كان يجلل رؤوس الالهة قديمًا صار الها باسم يوح ، وايزيس الالاهة ذات العشرة الاف اسم . ثم ان مقام الالهة تبدّل عن قبل فصار افتاح وسيرابيس من الدرجة الاولى . وتغيرت اسماء الرجال والبلدان فعوضًا عن فت ايزيس وفت عمون وسيرابيون صرنا نسمع بهودوتيس وهرموفنطوس و بوليقراط من اسما الرجال وصارت اشمونين تدعى هرموبوليس واسنا لاتوبوليس وخمّيس بانوبوليس وثيبه ديوسبوليس . ونشأت مدن جديدة كالبطاسية [1] وفيلاسه

(١) نحو ١٤٠ ميلا تحت ثيبه وتحتها فيلاسه على بعد نحو ١٤٠ ميلا منها على النيل اى بين القريتين الحديثتين المنشية والجرجه

وغيرها ودخلت للكتابة صور جديدة كالزرافة والموميه الراقدة على سرير والمراكب ناشرة شراعها والعجلات بخيلها . وكثر استعمال الحروف واتسع التعبير عن الافكار بالكتابة حتى ان القاب الملوك زاد وصفها بطغراءتهم

(٦١) ولما شاع استعمال ورق الفافير للكتابة بالقرب من زمان دخول الفرس لمصر شاعت ايضًا الكتابة بالحروف وقلم الغزّار وتشوشت صورها من ضعف صناعة الكتّاب فهي الان اعسر فكًّا من المحفورة . واما ماطرأ على اللغة من التغيير فلا علم لنا به لاسيما ان معرفتنا بلغة ذلك الزمان محصورة بما نظنه يقرب منها وهي ترجمة الانجيل باللغة القبطية والحرف الرومي بعد سقوط البطالسة بثلاثة قرون

(٦٢) ولما دخلت مصر في ملك اوقتاويانوس الذي سنذكره بعد الان بلقب اغسطوس كان القبط غير اولائك الذين عرفهم الاسكندر ولم يكن لهم من حظهم الاول من الاداب الاّ القليل فقلوا عدداً وافتقروا وتبلّهوا .

الفصل الثاني

عن سنة ٣٠ ق . م الى ٦٨ م

انتقال مصر الى حكم الرومان

اغسطوس سنة ٣٠ ق . م

(١) ابتدأ اوقتاو يانوس الملقَّب الآن بأغسطوس حكمه في مصر بكسر تماثيل انطوني فيهـا وكانت هذه التماثيل بالاسكندرية وحدها تفوق الخمسين ، أما تماثيل قلاوفطرا فانه أبقاها برجاء صـديقها أرخيبيوس وببرطيل منه بألف تالنت أي نحو مائتين وخمسة وعشرين الف ليرة من عملتنا الدارجة ، ثم أقام قورنيليوس غالوس الشاعر صديق ورجيل واليًا على مصر

(٢) وكان القانون قبـل سقوط الحـكم الجمهوري أن لا يقام حاكم بأملاك الرومان الا من أعضاء السناتو فأغسطوس لم يطلب الغاء هذا القانون لـكنّه طلب ولاية مصر وغيرها باسمه وبهذه الحيلة اخرج الولايات من حكم السناتو لحـكمه الذاتي وصار يقيم لها من شاء نائبًا

عنه الا مصر فانه ترك أمرها للسناتو محاباةً منـه والا فان السنا
كانت قد أمست اسماً بلا جسم فلا يصدر منها أدنى تحرش لولا
مصر بل كان هو الامر فيها ايضاً

(٣) ولكن بينما كان الحكم الروماني يترك لأكثر الولايا
استقلالها الاداري ، لم يستعمل اوقتاو يانوس من المصريين لادا
بلادهم الا من كان لا بد منه كالمفتي لشرائع دينهم وليس فقط ا
أقام عليهم ولاةً من غير أعضاء السناتو لا بل انه حرّم على هؤلا
الأصلاء الدخول لأرض مصر الا بأذن منه وصار هذا قانونًا بعد
لأجيال عديدة حتى في الزمان الذي فيه صارت الرومان تحتا
لاستعمال المسايرة . وقبل سن هذا القانون كان زار مصر الشا
تيبلّوس بصحبة صديقه السناتور ماسيلاً وحكى عن مشاهدته حز
أهل منَف على موت عجلهم ابيس وأخبر عن فيضان النيل ا
يكون عند طلوع الشعرى اليمانية مع الشمس

(٤) وكانت السنة المصرية تبتدىء من هذا الطلوع والسنة الديوا
عندهم كانت من ٣٦٥ يومًا فرأس سنتهم كان ضرورة يتأخر ر
يوم من سنة لسنة (١) فأمر أغسطوس باتخاذ حساب السنة المنسو
لقيصر من ٣٦٥ يومًا وربع يوم . واذ وقع رأس السنة المصرية بذا

(١) وهكذا كان الحساب يتأخر شهراً كل ١٢٠ سنة وكل الف وخمسما
سنة تقريباً يتم الدور فترجع الشهور الي فصولها الاولى

الزمان في ٢٩ سكستيلس اي الشهر السادس عند الرومان جعل ابتداء السنة منه وصار هـذا الشهر يسمى اغسطوس باسمه . ولبث هذا الحساب مستعملاً في اوروبا ستة عشر قرناً الى أن البابا غريغوريوس الثالث عشر أصلح خلله بوضع السنة الكبيسية . ولما أدخل أغسطوس سنته الجديدة صارت مصر تؤرخ بثلاثة رؤوس سنة . سنة مصرية رأسها نحو ١٨ يوليو من اسم يوليوس قيصر وسـنة امبراطورية رأسها ٢٩ اغسطوس وسنة فلكية رأسها من طلوع الشعرى اليمانية مع الشمس

(٥) وهذا كان حدّ اهتمام الرومان بدائرة العلوم الا أفراد منهم كقيصر الذي أمر بمساحة اراضي الاملاك الرومانية وقياس سككها واغسطوس الذي امر الان بمساحة ارض مصر الى ان بظرف اثنتين وثلاثين سنة تمّت مساحة اعظم القسم المعروف من الكرة لذاك الزمان ورُفع به التقرير للسناتو ، وفي ما بقي فان اعتناء الرومان كله كان موجهاً للحرب والفتوحات

(٦) واذ كان اغسطوس بالاسكندرية جاءه هيرود متوسّلاً باعادة أملاكه التي كان أنطوني قد أقطعها قلاوفطرا فأحسن اغسطوس استقباله وأجاب طلبه وزاده السامرية والمدن البحرية الحرّة وأعطاه اربعمائة جندياً من رجال الغال كانوا من حرس قلاوفطرا الخاص واخر شاكرية البطالسة

(٧) وزار اغسطوس ضريح الاسكندر ووضع عليه اكليلاً من الذهب وآخر من الزهور وأما قبور باقي ملوك البلاد فلم يلتفت اليها ، كما انه زار منف ورفض أن يزور العجل ابيس مع ان الاسكندر زاره بزمانه وضحّى له احتراماً لعقيدة القوم ولطفاً منه بهم . فكل اناء بالذي فيه ينضح

(٨) لكنه أعاد لليهود الامتيازات التي كانت لهم من عهد البطالسة رغماً عن كره اليونان لذلك ولقد أصاب لأن اليهود كانوا حينئذ اصحاب تهذيب واداب وغنى ومنهم خرج ابولوس العالم الذي يُعدّ بعد الحواريين من أعظم المبشرين بالدين المسيحي وهو الذي نشره في افسس وقورنت واقريطش

(٩) ولما عاد اغسطوس لروما اخذ معه كل الدخائر والتحف التي اصابها بمصر فكان ما حمله من الفضة والذهب بالرغم عن افتقار البلاد بالزمان الاخير كافياً لأن يخفّض قيمة النقود في روما فتهاودت فائدة القروض فيها وتصاعدت اثمان العقارات هذا ما عدا الجواهر والتحف والاثاث الثمين مما جمعه من القصور الملوكية ودخل به روما تحمله العجلات الضخمة وراء مركبته مع الاسارى اولاد قلاوفطرا من انطوني وبينهم تمثال امهم عوضاً عن شخصها وكان بآخر الموكب تماسيح للفرجة منها زاحفة ومنها سابحة في حوض تلاعبها رجال من بلد تنطيره التي كان أهلها خبيرين بصيد وتربية هذا الحيوان

(١٠) وأراد اغسطوس أن ينتقم من الاسكندرية فأمر ببناء مدينة بالمكان الذي ضرب فيه خيامه من جهة بابها الشرقي عند زحفه ضدها لتكون العاصمة الجديدة وسماها نيقوبوليس وبنى فيها المعابد ونقل اليها زينة معابد الاسكندرية وكهنتها ولكنه لم يتمها فهجرت بعد قليل وعاد كل شيء منها للاسكندرية ، كما ان الاسكندرية لم تزل للآن آهلةً عامرةً تحمد بانيها ونيقوبوليس لم يبقَ لها أثر ولا خبر لانها لم تؤسس على التقوى وسلامة النية

(١١) وحسب عادة الفاتحين بذاك الزمان نقل الرومان ما أمكنهم حمله من مصر لبلادهم فأخذوا تمثالاً محلًّى بالذهب للاله يانوس نصبوه في معبده في روما وصورةً من عمل نيشيا كانت من ذخائر المملكة الثمينة واشياء كثيرة غير هذه والمسلتين القائمتين للآن في بيازّا دَل بوبولو وفي مونتي تشيتورو من زمان اغسطوس

(١٢) ورأى اغسطوس بأن الوالي قورنيليوس غالُّوس لم يحسن السياسة في مصر فأبدله برجل حازم عاقل يدعى بطرونيوس

(١٣) فكان بطرونيوس يستخدم الجنود عنده لتنظيف ترع الري من الطين لعلمه بأن فائدة الفلاَّح تفيد جابي الخراج وفي أيامه صار بناء المقياس على جزيرة الفيلية ليعرف منه ارتفاع النيل

(١٤) ثم اذ كان بعد ذلك اليوس غالُّوس واليًا على مصر في هذا العهد

أتى السائح الشهير استرابو زائراً مصر ورافق الوالي لسيينه (١) وترك لنا وصفاً شائقاً عن جمال الاسكندرية وعظم تجارتها التي كانت تفوق تجارة ايطاليا بأسرها فان المراكب فيها كانت تغطي وجه المرفاء وشطوط بحيرة مريوط ،وضواحيها تمتد لأبعد من هذه البحيرة ومنظر حصنها من جهة والمنارة من جهة كان من أبدع المناظر حسناً . والمعابد والقصور تجالل اكثر من ربع البلد مثل السيما الذي كانت فيه قبور الملوك وقبر الاسكندر ودار المحكمة والموزيوم الجديد ومحل مجتمع التجار ومعبد نبتون والتيمونيوم والقيصرية ومعبد سيرابيس البديع والجمنازيوم ومعبد پان الذي يكشف من سطحه على البلد كلها والهبودروم والبساتين البلدية غربي المدينة والمقبرة ذات البنايات اللطيفة على شاطئ البحر ما عدا القبور التي بالديماس وحفّات بحيرة مريوط المكسوّة بدوالي العنب الشهير بجودة خمره وجوانب الترعة منها الى النيل المدبّجة بالازهار والاعشاب والاشجار الخضراء بين بهرجة الرمال البيضاء حواليها . و بعيداً كانت ترى بنايات المدينة الجديدة التي أنشأها اغسطوس . ولا عجب من هذا الوصف لعاصمة كانت فنون اليونان وغنى مصر مسخّرة لزينتها

(١) هي اسوان الحديثة بلاد عاد القديمة قرب جبل العاكي وفيه ذهب وفضة وجنوباً منها على خمسة عشر ليلة جبل الزمرد

بينما هليو بوليس العاصمة القديمة التي هدمها قمبيسي لم يكن باق من أثار مجدها سوى البيتين الذين درس افلاطون وصديقه اودوقسوس بهما الحكمة . أما منف فانها كانت المدينة الثانية من مدن مصر لأن ثيبه وأبيدوس كانتا قد صارتا بدرجة القرى . وعاين استرابو في منف قتال الثيران وأذن له أن يطلع من نافذة على الثور المقدس أبيس في مربضه . وشاهد بالتمساحية لقط التمساح المبارك وتغذيته بالحلويات والخمر . ورأى البطلسية تكاد أن تضاهي منف بجمالها نظراً لاعتناء الملوك بها بعد أن كانت لهم معسكراً فان بناياتها وقوانينها كانت كلها يونانية كالاسكندرية خلافاً لباقي مدن مصر وكان موقعها بين بانوبوليس وابيدوس حيث هما الآن القريتان المنشية والجرجه وها هي الآن قد امحت بينما معابد ثيبه القديمة العهد والبنيان لم تزل قائمة تشهد لها بالعظمة والشان . وزار ايضاً الصنم العظيم المكسور (١) ولكنه أبى أن يحكم بسبب مصدر النغم منه عند طلوع الشمس عليه . وشاهد البئر في سيينه التي يقع قعرها على حفة الشمس الشمالية تماماً في أطول يوم من السنة . ورأى براعة النوتية بانحدارهم بالشلال في قوارب الخوص . وزار جزيرة الفيله

(١) اصلا تمثال امنحوطيف الثالث . ولما بهذا الزمان صار يصدر منه نغم على اثر زلزلة حصلت زعم الاغريق بانه ابن طيطون والفجر وانه ممنون

بالقرب من سيينه حيث وجد نصف اهلها من القبط والنصف الآخر من السودان

(١٥) ومن سوء رأي هذا الوالي كان طمعه بغزو العرب باليمن وسلبهم لانه كان يرى تجارتهم الواسعة وكثرة ابلهم آتية مصر بالاحمال الثمينة من أموال الهند تعتاض بها ذهبًا وفضة من المصريين فظنها من محاصيل أرضهم فزحف ضدهم بعشرة آلاف مقاتل ومائة وثلاثين مركبًا نزل بهم على شاطئ البحر الاحمر بدرجة ٢٥ من العرض الشرقي لكن أدلائه من العرب تاهوا به عمداً بقفارهم فلم يجد مدنًا ولا شاهد عربًا لا سيما وان أهل الوبر منهم لما علموا بقدومه رأوا بأن الهرب من وجهه بأموالهم وماشيتهم انكى له بذلك الشول من مقاومتهم فأقام سنتين يطلبهم يحاذر من التوغل بالبر خوفًا من العطش الى أن بلغه تسطي السودان على مصر فهرول راجعًا ولحق بمراكبه بدرجة ٢٤ من ذلك العرض و بعد احد عشر يومًا ارسى في ميوس هرموس من بلاد مصر على البحر الاحمر

(١٦) في العصور الاولى من تاريخ مصر كانت السودان تمتزج بلغتها ودينها مع القبط أهل الصعيد لكن بعد تلك الازمان هاجر بعض العرب لافريقيا على شطوط البحر الاحمر ولما زار الصعيد استرابو كان عددهم قد تكاثر حتى صار نصف اهل مدينة قبطوس [1]

(١) هي القفط

منهم وكان عليهم مدار نقل أموال تجار ثيبه لا بل ان المؤرخ يوبا الصغير الروماني يقول بأن السودان كان في زمان اغسطوس بيد العرب الذين كان دأبهم الغزو وفخرهم القتال وغايتهم السلب واذا أصابوا منه شيئاً عادوا الى منازلهم مفتخرين بفروسيتهم .وكان قوادهم يدهنون وجوههم كوجوه اصنامهم بالزنجفر . فهؤلاء العرب لما وجدوا الرومان مشغولين باليمن زحفوا من مرو و بلاد الشلال الرابع على الصعيد تقودهم ملكة عوراء لكن اذ وصل غالّوس الى مصر طردهم اولاً من ابو سنبل ثم ظل يطاردهم حتى دخل عاصمتهم نباطه (١) بجيشه المؤلف من عشرة الاف مقاتل منهم خمسمائة يهودي والف عربي بينما اولئك العربان كانوا ثلاثين الفا انما اكثرهم لا سلاح لهم سوى الدرق والعصي والفؤوس ومجانّهم من الجلد . ووضع عليهم جزية يؤدونها لحامية تركها بينهم وعاد لمصر راضياً بحدوده على سبعين ميلاً من سيينه . وللآن ترى في مرو قناطر رومانية بمعبد نجا

(١٧) ثم جاء اغسطوس زائراً صاموس فأرسلت له الملكة العوراء وفداً تستعطفه بترك الجزية فأجاب طلبها وهذا برهان على ان مرو كانت مدينة راقية مهذبة وليس كما يستنتج من حالة جيش الغارة المختلط بالبدو والذعران المجاورين لها . اما وراء مرو فلا يوجد أثر لمدنية لاسيما ان الجبال الفاصلة بينها و بين الحبشة الجنوبية البحرية لم

(١) هي الان المسماة جبل بركل على حفة الشلال الرابع

تكن تسمح بمواصلات بين الارضين وسكان الجنوب كان اكثرهم يهوداً استوطنوا عدوله واقسيوم من عهد سليمان ومنهم من وصل الى مرو ولاذ بالملكة لاننا نجد فيما بعد ان خصيًّا يهوديًّا كان خازنًا عندها لا بل ان دين مرو ولغتها كانا بهذا الزمان ساميين حجازيين لا قبطيين

(١٨) أما لسان مصر الرسمي وسكتها في عهد اغسطوس وعهد خلفائه فكانا باللغة اليونانية حتى كان سوّاح الرومان اذا كتبوا شيئًا على عاديات البلاد كتبوه بهذه اللغة . وكانت النقود منقوشة بهامة الامبراطور واسمه من جهة والنسر المصري قابضًا على الصاعقة من الجهة الاخرى . ثم صارت تؤرّخ بسني جلوس الامبراطور وأولاً كانت صفته فيها « ابن الله » عوضًا عن الوصف المصري القديم « ابن الشمس » لكن لما صارت مصر ولاية رومانية افرغها الرومان من الذهب والفضة وأبطلوا سكتها راضين بأخذ خراج الحبوب عينًا وكان ذلك يبلغ حينئذ عشرين الف الف كيلة أو أربعة أضعاف الخراج في عهد فيلادلفوس

(١٩) ولم يتحرش الرومان لدين المصريين لا بل ان معابد طنطيره وطاميس وهي الآن قلابشه بالنوبه يُرى محفوراً عليها باللغة الكهنوتية اسم اغسطوس اوتوقراطًا وابن الشمس وملك الارياف والصعيد وغير القاب كانت توصف بها البطالسة وملوك البلاد قبلهم

وظلّت السناتو كل عشر سنين تجدد انتخاب اغسطوس اوتوقراطاً وهو يتمنع محاباةً منه الى أن تمّ له بالملك اربعون سنةً

(٢٠) ولا يُنكر بأن اليونان قد أخذوا دينهم عن المصريين فاقتبسوا منهم اليقين بالبعث ويوم الحساب والجزاء على الاعمال ، والآن نرى الرومان أيضاً ناصبين في روما تماثيل آلهة المصريين ومشيدين المعابد لها والفقراء بشوارعهم يتوسلون للمحسنين بحق ايزيس وورجيل شاعر البلاط الملوكي يقول بقولهم بالبعث على رأس الالف سنة ، وكل ذلك رغماً عن انكار اغسطوس هذا الدين وتحريمه على الناس

(٢١) ومن علماء هذا الزمان كان سوتيون الفيلسوف الاسكندري الذي عنه أخذ سنكَّا بصغره علم الاخلاق . وكان من مذهب بيثاغوروس بتحريم أكل اللحوم لزعمه بأنه من الجائز انتقال أرواح البشر للبهائم المأكولة . وله تأليف لطيف جمعه من عدة مواضيع وسماه قرنوقوبيا . وكان العالم أرخيبيوس ناقل مزامير قاليماخوس من رجال هذا العصر وابن ابولونيوس مؤلف القاموس المفسّر نشيد اوميروس . وكان بينهم ايضاً الشاعر تريفون والمنطيقي ارستونيقوس الباحث في اراء هزيود بالتكوين وتسلسل الالهة واسماء العلَم بكتاب اوميروس وتيدمنالاوس ملك اسبارطا وعاشق هيلانه

(٢٢) ولما مات اغسطوس خلفه طباريوس الذي سار بالناس سيرةً

حسنة فأحبته مصر واقامت الاسكندرية معبداً على اسمه طرف الرصيف محاطاً بالاساطين وبحديقة ووضعوا فيه مكتبة . وكان على أعلى أكمة بالمدينة وامامه مسلّتان من عهد طوطمس الثالث وحفر رمسيس الثاني احداهما المسماة مسلة فلاوفطرا وهي القائمة الآن على حفة التاميز في لندن وكان معهما مِزوَلة تقسم النهار الى اثنتي عشرة ساعة على مدار السنة بدون نظر الى طوله وقصره صيفاً وشتاء وذلك لعدم وضع الضلع منها على خط قطب الارض الشمالي كما كان علّمه من قبل الفلكيون ايراطوسطين وهبارخوس

(٢٣) وابتدأ طباريوس حكمه في روما باقامة العدل الصارم والضرب على أيدي الولاة الظالمين حتى ان لمّا حاكم مصر اميليوس راقطوس توهّم بأنه يرضيه ببعثه له خراجاً منها اعظم كثيراً من المعتاد كتب اليه الامبراطور « قد وصلني ما أرسلته من الخراج لكن اعلم بأني انما أقمتك على مصر لترعى غنمي فيها وتجزّ لي صوفها وليس لتسلخها والسلام » . وكذلك اذ مات أحد الولاة ممن كانوا في مصر ووجدوا بين أمتعته تمثالاً لمنالاوس من حجر قبطي اسود كان قديماً يُعدّ من ذخائر معبد هليوبوليس أمر طباريوس بردّه لمكانه فلأجل ذلك كانت الكهنة توقره وتودّه وترسم اسمه على المعابد . وفي زمانه زيد الرواق البديع على معبد طنطيرا منقوشاً سقفه بمنطقة البروج التي ظنها العلماء اولاً من وضع الاقدمين مستغربين عظم التأنق .

بنقشها بذاك المعبد الضخم البسيط البنيان حتى فطنوا لبرج الميزان فيها الذي لم يمثل بهذه الصورة الاَّ من عهد اغسطوس والأغرب بهذا الرواق هو تشييده بزمان كانت مصر فيه بالفقر والضيق لكن اذا اعتبرنا بواعث التقوى زال الاستغراب او كما قال الشيخ ابن الفارض

« ولقد صرفت بحبه كلي على يد حسنه فحمدت حسن تصرفي»

اما طنطيرا المذكورة فهي لانو بوليس اليونانية واسنا الحديثة

(٢٤) وفي السنة الثالثة من جلوس طباريوس أتى جرمانيقوس قيصر واليًا على المشرق وصعد الى تيبه وسأل كهنتها أن يفسروا له الكتابات القديمة التي على جدران معابدهم فأخبروه انها تصف عظمة البلاد في عهد رمسيس اذ كان يخرج منها سبعمائة الف مقاتل أخضع بهم رمسيس ليبيا والسودان والفرس والكلدان والارمن والسوريين ووضع عليهم الجزية من ذهب وفضة وخيل وعجلات وعاج وبخور للمعابد وحبوب لأهل عاصمته . ثم انه زار صنم عمونوطف وسمع نغمه الشهير وزار الفيليه وسيينه وهي اسوان الحديثة وبأيابه عرّج على الاهرام وبحيرة ميريس التي كانت تحفظ مياه طوفان النيل للريّ بعده . وشاهد في منف العجل المقدس ابيس وقدّم له بيده شيئًا من القوت ولما أعرض عنه العجل تفاءل الكهنة من ذلك واذ بعد قليل مَرِض هذا الامير ومات قال الكهنة بأن

فأهلم قد صدق فأسفوا عليه لأنهم كانوا قد أحبوه للطفه وكرمه وتجوّله بينهم بلا حرس ولا تكاليف. وكانت زيارته لمصر ضد قانون اغسطوس فعاتبه طباريوس على دخولها بدون اذنه . وهنا أقول انه يظهر لي بأن «أبيس» فيه تحريف لأن كتابته بلغة القبط تعادل Hapi بلغة الاغريق ومعناها « الخفي » فصحة لفظها تكون ايضاً «خفي» لأن اليا والفا مترادفتان فيصبح الاسم عربياً . واما سيرابيس فهو اسم جديد مشتق من اسمين اوسيريس وابيس

(٢٥) وكان يهود مصر في ذلك الزمان زهاء الف الف نسمة ، قسم منهم كان ثلث سكان الاسكندرية في حيين من الخمسة احياء بالمدينة لهم فيهما المشايخ والسنهدرين وهيكل في عينون بدلاً من هيكل أورشليم الا لمن ظل منهم متمسكاً بسنهدرين اورشليم وهيكلها ولكن بالرغم عن قانون قيصر الذي ثبت لهم امتيازاتهم القديمة ومساواتهم باليونان كان مركزهم بالبلاد حرجاً لأن اليونان ظلوا يحتقرونهم والمصريين كانوا يحسدونهم على امتيازاتهم ويسمونهم أولاد الشيطان تيفون

(٢٦) وكان بالقرب من الاسكندرية على تل بجوار بحيرة مريوط طائفة من اليهود يسمونهم التيرابيتيين قد تعلموا التنسّك من المصريين وتركوا لنا أول مثال من العيشة الرهبانية فيقول المؤرّخ فيلو عنهم بأنهم كانوا لزهدهم بالدنيا قد هجروا منازلهم واهلهم وتركوا

اموالهم وحبسوا انفسهم منفردين بصوامع لهم ، رجالاً ونساء ، منهم من لا يذوق طعاماً سوى ثلاثاً بالاسبوع ومنهم مرة واحدة بالاسبوع ولا يجتمعون الاَّ في يوم السبت ، الرجال من جنب والنساء من جنب لابسين قميصاً يغطي ايديهم فيقف شيخ منهم يعظهم ثم يصلون و ينصرفون . وكانوا يعتقدون بأن للاعداد اسراراً فكان العدد السابع عندهم مباركاً وسبعة بسبعة كانت عندهم الاسبوع الكبير فيعيدون بالخمسين وفيه يأكلون سوية متكئين على القش طعامهم الخبز وشرابهم الماء ونقلهم الملح والجرجير ، يخدمون انفسهم و يستحرمون اتخاذ العبيد وكانوا يختمون أعيادهم بالنشيد والتسابيح بصوت واحد ومترادفين

(٢٧) هذا ما حكاه فيلو عنهم ولكنه لم يذكر كيف كانت تُسد احتياجاتهم فأكثر الظن انهم كانوا يشتغلون بنقل التوراة و يعتاشون من اثمانها ولم يوضح ايضاً أسباب هذا الزهد الاَّ أن تكون مما دعى غيرهم لمثله من قبل ومن بعد وهو ظلم الحكام وفساد طباع الجمهور بأزمنة اكثر من غيرها تتولّد فيها كراهية الاختلاط بالناس وفتور بالعزم اللازم للقيام بالتكاليف الاجتماعية

(٢٨) وكان ايضاً فريق آخر من اليهود في فلسطين ينسكون على شواطىء بحيرة لوط الا ان تنسكهم كان عن قناعة وعفة لا عن

يأس وكره للدنيا ،طريقة المصريين القدماء الذين كانوا ينقطعون عن معاشرة الناس ويرون بالعذاب والشقاء فضيلة تكسبهم رضى الالهة فيهود مصر كانوا من هذا المزاج ومنه تولدت الرهبنة المسيحية في مصر بعد حين

(٢٩) وسنة ١٩م تنكر الرومان من اليهود في روما ونفوا منهم اربعة آلاف الى سردينيا لا لسبب دينهم لأن الرومان كاليونان لم يكن يخطر لهم قط التعصب لمذهبهم بل كان لسبب حفظهم السبت وامتناعهم فيه عن مشاركة الجمهور بالاحتفالات الرسمية فشكّ في اخلاصهم للدولة

(٣٠) وسنة ٢٣م قفل طباريوس بيت ضرب السكة بالاسكندرية لا سيما وان البلاد كانت بفقدها استقلالها قد فقدت سكتها الذهبية ولم يبق لها سوى عملة من فضة زائفة رومانية وصار الغنى والجاه لروما وما وجد فيها ذهبًا بهذا الزمان من ضرب طباريوس هو قليل جداً باسم اغسطوس تذكاراً له كزوج امّه

(٣١) ومن ولاة مصر في عهد طباريوس كان افلاقوس اويليوس عرف أطوار سيده فساس البلاد على أحسن منوال وحفر الكهنة اسمه مع اسم الامبراطور على معابد طنطيرا الكهنة تغير فيما بعد عما كان كما سنراه عن قريب

قاليغولا سنة ٣٧ م الى سنة ٤١

(٣٢) وسنة ٣٧ مات طباريوس وخَلَفه قاليغولا الذي كان يكره اليهود واذ نُصب تمثاله في معابد المملكة ولم تقبله اليهود بكنائسها فتنى عليهم الاغريق بالاسكندرية وبمرور اغريباً ملك فلسطين بالاسكندرية سخروا منه لدرجة انهم البسوا صعلوكاً منهم تاجاً من ورق ووضعوا بيده صولجاناً من قصب الغزّار وداروا به الاسواق ينادونه باسم اغريباً وكان افلاقوس الوالي يرى ذلك ولا يعارض بهِ لاستيائه من وجود شخص بالمدينة أعلى منه مقاماً مع ان اغريباً لم يمر على مصر بايابه من روما الا باذن الامبراطور ونزل الاسكندرية مساءً كاحد الناس لا بل انه لم يأت بمركب من مراكب تجارة الاسكندرية الاّ لاجل الماء الذي تحمله هذه المراكب الكبيرة ويحلّ له الشرب منه خلافاً للمستقيات الخشبية بالمراكب الصغيرة التي لا يحل لليهود الشرب منها وذلك ربما من الفساد الذي يعتريها بالسفر الطويل

(٣٣) ولما رأى الرعاع عدم تحرش الوالي لسوء ادابهم طمعوا ووثبوا على اليهود بمنازلهم وكنائسهم وعاثوا فيهم ومزّقوا الاعلان المنشور بامتيازاتهم وحملوا تماثيل الامبراطور لكنائسهم ونصبوها فيها غصباً عنهم واذ لم يجدوا منها ما يكفي غرضهم اخذوا بعض تماثيل البطالسة

من الجنازيوم ونصبوها بكنائسهم . ثم ان الوالي أصدر منشوراً به يصف اليهود بانهم دخلآء فازداد الاغريق حماقة واليهود حنقاً واستعر القتال بين الفريقين ولكن يا ويل الفريق الاضعف والحاكم خصمه ! فانهزمت اليهود واحتمت بحي من الحيين وانتهبت بيوتهم المهجورة بحيهم الآخر وانسلّ منهم رجل ليبتاع قوتاً لاولاده بالخفية فمسكه الاغريق واحرقوه بالطريق ولأن الاغريق ادعوا بأن اليهود يخفون سلاحاً في بيوتهم قبض الوالي على ثمانية وثلاثين شيخاً من اكابرهم ليقررهم بخفية السلاح ولم يكن لهم ما يكشفونه له فأمر بجلدهم بيد الجلادين المصريين زيادة في اهانتهم

(٣٤) ولم تصل اخبار هذه الحوادث للامبراطور حتى اغريباً بلّغه اياها فغضب من عمل الوالي وبعث بالحال قائداً ومعه فرقة من العسكر للاسكندرية ليحضروا له هذا الظالم فلما وصلوا اليها نزلوها ليلاً وكبسوا الوالي وهو مع اصحابه على العشآء فمسكوه وقادوه لروما توًّا بالاغلال

(٣٥) وكانت اليهود في تلك الليلة بعيد المظالّ فلمّا سمعوا حركة العسكر بالمدينة ورأوا المشاعل امامها خافوا خوفاً شديداً لئلا تكون الحركة ضدهم ، لكن اذ بعد قليل انكشفت لهم الحقيقة فرحوا وشكروا الله عل خلاصهم من هذا الجائر

وما من يدٍ الاّ يدُ الله فوقها ولا ظالمٌ الاّ سيُبلى بظالمِ

(٣٦) ورُخّص لهم بعدئذٍ بارسال بعث يقدّم شكواهم للامبراطور فارسلوا بعثًا يرأسه الفيلسوف فيلو وارسل الاغريق بعثًا يدافع عنهم يرأسه ابيون المنطيقي فكان من هذا انه سألهم بدائيًّا بحضرة الامبراطور الم يرفضوا وضع تمثال جلالته بكنائسهم فلما اجابوه ببلى وقبل أن يوضحوا سببهم الديني قطع الامبراطور الحديث وفضّ المجلس معتبراً اقرارهم بحضرته اهانة ظاهرة له ضدّ قانون الدولة ومستغربًا على زعمه حماقتهم فانسحب فيلو كئيبًا وهو يقول ان يكن الامبراطور ضدنا فان الله معنا

(٣٧) واخبار هذه الحوادث وان اتتنا من مؤرخ يهودي فان لنا بصفات فيلو السامية ومنزلتـه من العلم وكبر سنه كفيلاً على صحة شهادته . وهو الذي عادت مدرسة الاسكندرية بعلومه الى زهوها بزمان البطالسة الاولين فانه كان يهوديًا دينًا افلاطونيًا مذهبًا وبالمولد مصريًا ولا بد الآن لدارسي الحكمة والباحثين عن الدين من مطالعة كتبه ليروا كيف كان تدرُّج الافكار من مذهب الى مذهب حتى وصلت لمذهب الشهدآء كيوستين وقلامنس المسيحيين الافلاطونيين وكان فيـلو اول يهودي اخذ عن المصريين اعتقادهم بسرّ الكمال بالثلاثة من العدد وجمع الاسنى من حكمة افلاطون الى الاسنى من التوراة حتى كاد ان يكون مسيحيًّا

(٣٨) فبجاه هذا الاستاذ عاد لليهود بالاسكندرية رونقهم الادبي حتى

صار الاغريق يلهجون بكلامهم و يرون له بلاغةً وطلاوةً لم يعرفوها من الوثنيين . واذ كانوا قد ابتدأوا من القرن الاخير ان يشعروا بانهم ليسوا خير البشر واصبحوا يعتنون بتفهّم افكار جيرانهم نراهم الآن يعترفون بأن اليهود هم اول العلماء بمدرسة الاسكندرية

(٣٩) ونعم ان ابيون الرومي الصعيدي خصم فيلو كان منطيقيًا بليغًا ومصحح نشيد اوميروس الاّ انه لم يبقَ لنا من كلامه سوى ردّ يوسيفوس على انتقاده على اليهود ومن كتبه سوى حكاية اندروقاوس والاسد بينما كتب فيلو تشهد لصاحبها بالعلم والفضيلة والتقوى التي لا يُعلى عليها

(٤٠) وقبل الوداع من قصة البطالسة يسوغ ان نذكر بأن اغسطوس لما ساق سيلينا ابنة قلاوفطرا اسيرةً لروما زوّجها فيما بعد يوبا الصغير مؤرّخ افريقيا واقطعهما بلاد المغرب بالارث عن والدها لكن اذ مات يوبا وخَلَفه ابنه بطليموس تغيّر عليه قاليغولا ونفاه من مملكته فراح تائهًا في بلاد اليونان واسيا الصغرى حيث لاقى اكرامًا يليق بابن البطالسة . ثم ان قاليغولا احتال عليه وقتله فلم يبقَ حينئذٍ من عائلة مصر الملوكية اليونانية سوى دروسيلا حفيدة قلاوفطرا وانطوني زوجة انطونيوس فيلكس حاكم اليهودية الذى كان له قبلها زوجة اسمها دروسيلا ايضًا

قلوديوس سنة ٤١ م الى ٥٥ وطريق الهند بحراً وتجارة القرطاس

(٤١) ثم لما مات قاليغولا وخَلَفه قلوديوس حصل عند اليهود فرح عظيم فطاشوا وتجمهروا بالاسكندرية متهدّدين الاغريق بسيوفهم وعلى رأسهم ديميتريوس زوج مريم ابنة اغريبا الاكبر يطلبون اعادة امتيازاتهم القديمة ولم يسكنوا حتى اصدر قلوديوس منشوره باعادتها

(٤٢) وكان قلوديوس عادلاً حليماً لكن الولاة والعمال لم يكونوا كذلك فاجتهد باصلاحهم ووجد بالسنة التاسعة من ملكه ان مصر بحاجة للعدالة فسن قانوناً لحفظ حقوق الشعب من التعدي والظلم وأمر الوالي قنيوس كبيتو بنشره بالبلاد لكنه لم يقم قضاةً داخل البلاد للحكم بموجب الشرع فكأنه ما عمل شيئاً

(٤٣) وبنى مدرسة بالاسكندرية سماها باسمه وامر ان يُقرأ فيها تاريخه عن قرطاجنه اياماً معلومة بالسنة وتاريخه عن ايتاليا بالمدرسة القديمة اياماً مثلها . ونعم الامر ، لما لدرس التاريخ من الفوائد الذاتية والعمومية

(٤٤) واعاد لمصر حرية ضرب نقودها وباول سنة من جلوسه بدأ بضرب سكته البديعة بالاسكندرية وعليها تاريخ جلوسه وسنو ملكه مما أفاد المؤرخين افادة عظيمة وهناك فضل آخر لسكة الرومان على سكة البطالسة التي وان كانت لطيفة فان كتابتها المصرية كانت مشوشة واما تلك فكانت كتابتها ورموزها المصرية صريحة ومتعددة الشكل

(٤٥) وفي هذا الزمان اكتشف الاغريق والرومان على طريق الهند بحراً من مصر واتسعت التجارة من وراء ذلك اتساعًا عظيما . فقدّر المعاصر والمؤرّخ بليني الاكبر قيمة الذهب والفضة الصادرة سنويًّا من مصر للهند بأربعمائة الف ليرة من عملتنا الدارجة الآن ثمن الأموال التي كانت تجلب منها وتباع في روما بربح مائة بالواحد اي بأربعين مليونًا وأعظمها كان من الحراير والالماس وأحجاراً كريمة أخرى ثم من التوابل كالزنجبيل والقرفة والبهار والفلفل عدا ما كان يجلب من أموال افريقية الجنوبية كالعاج وسن الكركدن وجلد فرس الماء وصدف الاطوم والقرود والسعادين والعبيد آتية بحراً الى برينيقة وهي سواكن هذا الزمان لان البرّ عن طريق السودان واسوان لم يكن مأمونًا . أما طريق الهند بحراً فكانت بالنيل الى قبطوس ومنها برًّا على الجمال الى سواكن مسيرة اثنتي عشرة ليلةً أو مائتين وستين ميلاً . ثم كانوا ينزلون البحر في منتصف شهر يوليو عند طلوع الشعرى اليمانية مع الشمس . وبعد ثلاثة ايام يصلون إما الى أوقليس على الشطوط العربية الجنوبية واما الى قانس على شطوط بلاد البخور من افريقية الشرقية بالقرب من خط الاستواء وهناك كان الريح الموسمي (وهو ما تسميه الافرنج الآن مونسون) المكتشف عليه بذاك الزمان من النوتي هبالوس يحملهم فيخترقون البحر العربي الى موزيريس من ملابار الهند حتى يصلون اليها

بأواسط سبتمبر ثم اذا كان آخر دسمبر يقلعون كما اتوا ببضائع الهند الثمينة ولم يزل هذا الطريق هو الوحيد المعروف بين اوربا والهند الى ان اكتشف البورتغاليون بالقرن الخامس عشر على طريق رأس الرجا الصالح فتعطَّل طريق مصر والبحر الاحمر (كما تعطل طريق رأس الرجا الصالح بفتح ترعة السويس بأيامنا الحاضرة) وتأثر منه تجار العرب ومصر تأثيراً بليغاً لسبب انقلاب مجرى التجارة

(٤٦) وحكاية اكتشاف طريق الهند بحراً هي أن الرومان كانوا كعادتهم بأكثر أملاكهم ما خلا مصر قد ضمَّنوا خراج وكمارك البحر الاحمر العائدة لهم لتاجر رومي اسمه انيوس فلوقاموس صاحب مراكب كان يستخدمها لهذه الغاية ويتاجر وأحياناً يقرصن بها حتى على شطوط العرب الجنوبية . فيوما ما طاح بأحد نوتيته مركبه مدفوعاً بريح شمالية قوية جداً قذفته الى الاوقيانوس وتاهت به خمسة عشر يوماً الى أن وجد نفسه على شط جزيرة لم يكن يعرفها فكانت سيلان وكان هو أول رجل اوروبي أتاها لذاك الزمان وأفشى طريقها

(٤٧) وبجوار الطريق من قبطوس الى سواكن كانت مناجم الرخام السّماقي وجبل الزمرّد المسمى القلوديانى لان الامبراطور قلوديوس كان قد حماه لنفسه

(٤٨) ولما اشتهرت طريق الهند البحرية بدأ علماء الجغرافية يحدّثون عظم المسافة بين الهند وافريقيــة والا فان الجمهور لذاك الزمان كان يظن

بأن بلاد فارس هي بالقرب من الحبشــة وكان اليونان يظنون بأن النيل يخرج من المشرق او ما كانوا يسمونه الهند وهي البلاد المعروفة الآن بالحبشة أما اليهود فكانوا يقولون عن النيل انه نهر جيحون الآتي من جنة عدن غرباً دائراً حول بلاد قوش اي الحبشة

(٤٩) والمؤرّخ بليني بكلامه عن صنائع مصر يذكر خصوصاً الـكولان أي الفافير أو البرَدي الذى منه آخـذ الافرنج اسم الورق لترادف الفاء والباء فقالوا « پاپر و پاپیه » فيقول بليني بأنه نبات من جنس القصب ينمو بالمستنقعات التي يتركها النيل بعدانتهاء فيضانه فيؤخذ منــه الخشب للوقد وللاثاث والزهر لزينة الأصنام والقشر لعمــل الحبــال والمراكب وحياكة الشراعات واللبّ منــه لعمل القرطاس الذي يوجد منه ما يصعد عمله الى ٣٦٠٠ سنة ق . م وأجوده كان الـكهنوتي الى ان كان عهد اغسطوس فصنعوا جنســين أحسن من الـكهنوتي ، سموا احــدهما اغسطي والآخر ليوْياني من اسم امرأة أغسطوس وصنعوا أجناساً أدنى منهما كالفانياني والانفيتياتريك والسايتيك وأدناها كان يسمى امبوريتيك لايصلح الا للصرّ وكان أجود هذا الـكاغد رقيقاً شفّافاً لا تمكن الـكتابة عليه الا من جهة واحدة ففي عهد قلوديوس اخترعوا عمل جنس منه يصلح للـكتابة على الوجهين وسموه القلودياني . ويقول بليني بأن مصر كان لها تجارة واســعة جداً بالـكتان والقطن أوّلهما يطلع بالقــرب من تانيس

و بلوزيوم و بوطوس بالارياف والآخر بالصعيد ناحية النيل الغربية وان مخازن الحبوب الكبيرة كانت بالاسكندرية واليها جاء يهود فلسطين بأول هذا العهد يشترون منها لما أمحلت أرضهم

(٥٠) وكان للمصريين براعة بالصبغ وتفنن بالألوان لا يعرفهما اليونان ولا الرومان وكذلك بالحبر الذي كانوا يكتبون به على اكفان المومياء وهو الذى نستعمله الآن للكتابة الثابتة على القماش . وكان علمهم بالاجمال بطريقة تحليل الأجسام وتركيبها يفوق كثيراً علم جيرانهم ، وهكذا لما العرب اخذوا عنهم هذا الفن سموه خيميا أي الفن المصري ، من اسم مصر القديم « خيم » كما ان اسم النفط مأخوذ عن المصريين ومعناه زيت الجبل الذي وجدوه على شط البحر الاحمر من جهة الطور . وكان يظن لذاك الزمان ان لا وجود للالماس الا في مناجم ذهب السودان . أما رخام مصر فالمعروف منه اسماءه كلها رومانية كالابسيدوني للرخام النوبي الاسود من اسم أبسيديوس المكتشف له ، والطباري للرخام الاسود المنقط بأبيض من اسم طباريوس قيصر ، والاغسطي للرخام المعرّق من اسم اغسطوس والبورفيري للسّماقي اللون الذي تفننوا بنحته بهذا الزمان أصناماً وتماثيل أجسامها منه والوجه واليدان والرجلان من الرخام الابيض تشبيهاً بالاشخاص المكسوّة

(٥١) أما الخمر فان الذي كانت ترغبهُ اليونان والرومان بذاك الزمان

كان أعظمه من عصير بلاد اليونان وايتاليا و بعده كان المريوطي والنانيوتيك والفيومي ثم خمر انطِلاّ شرقي الاسكندرية ثم وارد انطيفرا من ليبيا على بعد مائة ميل من الاسكندرية .واردا خمر كان من عصير الصعيد . أما الشعب فكان مشروبه من عصير الشعير ولكنّ أفخر الخل كان المصنوع من النبيذ المصري وله الشهرة في روما وكان يصنع أيضًا خمر فوّار كالشمبانيا في سبينيتس يسمى عيطلون

(٥٢) والخمر الغريب كان يأتي الى الاسكندرية بجرار من الخزف على شكل البطة ذات عروتين عند الرقبة اكثرها من جزيرة رودوس و بعضها من قورنت واقنيدس على شطوط آسيا الصغرى ومن قبرس وشيو وطاسوس التي كانت فيها مناجم الذهب قديمًا ومن عبامه على الاورنتس ومن جنوبي البحر الاسود ومن صقاليا ومرو السودان التي خمرها كان من عصير التمر لكثرته هناك وكل هذه الجرار قد عرف اصلها من شقفها التي وجدت بتراب الاسكندرية وعليها اسماء هذه البلدان ومن شكل هذه الجرار صارت العرب تسمى جرة الخمر بطّة

(٥٣) والسائح استرابو والجغرافي بومبونيوس ميلا يذكرون بركة موريس المصطنعة ووسطها هرمان صغيران كانت تسقي ألوفًا من الفدادين بجوار ارسينويه الا أنها كانت بزمان بليني قد جفّت وانحدرت مياهها الى بركة القيرون وأصبحت الأراضي حواليها قفراً ليس فيها

غير شجر الزيتون البرّي وذلك لانها كانت بمدة الخمسين سنة الاخيرة قد أهملت وتعطلت جدرانها . وبهذا الزمان زيد في معبد لاتوبوليس البديع المشاد من عهد البطالسة رواق منقوش عليه اسم قلوديوس وبعدها حفروا فيه أسماء خلفه وكانت عمده جميلة الصنعة جداً رؤوسها بشكل اغصان النخل وزهر الفافير والمعبد كان مكرساً للاله اقنيب الذي له عدة اسماء عند اليونان يظن انها كلها تحريف اخنبه بلغة القبط ومعناها الينبوع وكان في لاتوبوليس معابد غيره لإله من جنس السمك

(٥٤) وكان اسم السنة بلغة القبط بيت وهو ايضاً اسم طائر عندهم وكان اسم غصن النخل عندهم بي فزادوا عليه حرف التاء الذي هو هكذا ▬ ودائرة تحته وصاروا يعبرون بذلك عن السنة الى ان صار البعض يسمون السنة طائراً او غصن نخل وكان اسم النخل بلغة الاغريق فينكس فأخذوا هذا الاسم يرمزون به الى طائرخرافي وهو ما تسميه العرب العنقاء ونقل عنهم الرومان بدون استقصاء خبره فلما كانت سنة ٤٧م وبها تمّ القرن الثامن من بناء روما زعموا بأن الطائر قد جاء من مصر وزار مدينتهم وانه طائر عجيب (١) يأتي من العربية على رأس كل خمسمائة سنة حاملاً رمّة أبيه التي خرج من دودة منها ليلقيها بعشها المعطّر ويحرقها على هيكل معبد الشمس

(١) ومثله عند اهل الصين

في هايو بوليس ثم يعود الى بلاده ، و به استشهد المسيحيون على حقيقة البعث وذكره قلامنس أسقف روما برسالته الى القورنتيين بهذا المعنى

نيرو سنة ٥٥ م الى سنة ٦٨

(٥٥) وعند موت قلوديوس خَلَفه نيرو ، وظهر حينئذ في مصر رجل يهودي ادّعى بأنه نبي وهيَّج اليهود للانتصار لاخوانهم في اورشليم فاجتمع اليه اربعة آلاف مقاتل على قول البعض او ثلاثون الفًا على قول آخرين سار بهم اليها لكنهم بوصولهم لحدود فلسطين لاقاهم الحاكم فلاقوس ومزق شملهم . فمثل هذا التعصب من اليهود من وقت لآخر كان هو الذي يضرم الحقد في صدور الروم ضدهم وهكذا لما كان هؤلاء مجتمعين بالجنازيوم لانتخاب بعث يرسلونه لروما دخل بينهم بعض اليهود بدعوى المساواة بهم فوقع اليونان عليهم وطردوهم كجواسيس وكادوا أن يقتلوهم لولا ان يأتيهم المدد من اخوانهم ويرسل الحاكم طباريوس بعض مشايخهم ليردوهم فانسد الخرق حينئذ لكن ما لبث الشر حتى عاد بينهم فاقتتلوا أيامًا واضطرّ الحاكم الى استدعاء خمسة آلاف من جنود ليبيا لمساعدته على اخماد الفتنة ثم قام بحراسة اليهود الى أن جمعوا قتلاهم من الازقة ودفنوهم . اما قول يوسيفوس بأن قتلى اليهود بتلك الحادثة بلغ خمسين

الفاً ففيه ولا شك مبالغة عظيمة لما هو معروف من صداقة الحاكم لهم

(٥٦) ولكن لما كان من سياسة المملكة ان الوالي يُعزل اذا وقع شغب بولايته لأنه لم يتلافاه أمر الامبراطور بعزل طباريوس وابداله ببلبيلوس الذي بوصوله من صقليا للاسكندرية بستة أيام عُدّ سفره من غرائب الزمان بالسرعة . ولهذا الوالي تاريخ عن مصر ذكره سنكا بالاطراء عليه لكن لا وجود له الآن . ومما ينقل عن لسان بلبيلوس ان التمساح الذي لا يُرى الآن تحت ثيبه كان كثير الوجود بالارياف بزمانه وانه قد رآه يطارد الدلفين بالقرب من اسوان

(٥٧) وبهذا الزمان كانت مراكب الاسكندرية ونوتيتها أعلى شهرة من سواها وتجارتها مع ايتاليا أعظم تجارة فحصلت لنوتيتها من وراء ذلك خبرة كلية بالطريق حتى كانوا اذا ساعدهم الريح يقطعون مائة وخمسين ميلاً بنهار وليلة أما اذا قاومهم الغربي منه التجأوا الى شطوط آسيا الصغرى واذا لاقوا هيجاناً عظيماً بالبحر التجأوا الى اقريطش او مالطه وربما دخل عليهم الشتاء فيهما فيظلون محتمين بمكانهم لدخول فصل الربيع فلا يصلون الى ايتاليا الا بخمسة أشهر ، وهذا عين ما توقّع لبولس الرسول ورفيقه يوسيفوس المؤرّخ بسفرهما الى روما

(٥٨) ولأنّ خليج مالطه كان اوسع وامن مرفأ بالبحر المتوسط وملجأ

مستمرًّا لمراكب مصر وايتاليا اصبح اهلها خليطًا من شعوب شطوطه.
ومن الجماجم التي وجدت بأرضها يظهر بأن اكثرهم كانوا مصريين
حتى في زمان الفينيقيين بانين المعبد الكبير فيها لاله مصر المسمى
من اليونان معبد خيم او اجياخيم . كما ان نقود الفينيقيين التي وجدت
فيها ترى عليها من جهة صورة اله صقليا ومن الاخرى صورة الثالوث
المصري ايزيس وعوزيريس ونفطيس والتي من زمان اليونان عليها
صورة ايزيس من جهة وعوزيريس مجنحًا من الجهة الاخرى
ومثل هذه النقود وجدت ايضا بالجزيرة الصغيرة هنالك بين صقليا
وقرطاجنه المسماة قصيرة

(٥٩) في الخمس السنين الاولى من عهد نيرو وهو قاصر وتحت وصاية
الفيلسوف سنكا كانت المملكة مثالاً للعدالة والانصاف حتى ان
نقود مصر للسنة الثالثة من جلوسه على سرير الملك ضُربت بصورته
وعلى رأسه تاج مصر المزدوج واسمه عليها « السعد الفتي » وكان
المصريون يشكرون من واليهم الجديد بلبيلوس اليوناني المصري الى
انهم قالوا بأن النيل قد اقتدى بكرمه واحسانه فاتى بزمانه وافيًا.
لكن اذ شبَّ نيرو واستلم زمام الملك تحوّل الحلم الى الحماقة
والعدالة الى الظلم وعمل الولاة بسنة ملكهم حتى ان بلبيلوس الذي
اعطاه الامبراطور لقب طباريوس قلوديوس ايضًا تغيَّر عما كان
فاظلمت الدنيا ونزل البلاء بالناس

٦) ومن أساتذة نيرو كان الفيلسوف خيرامون رئيس مدرسة الاسكندرية سالفًا وله تأليف صغير يشرح فيه طريقة الرهبان المصريين القدماء وكان زاهدًا بالدنيا و يؤثر الموت على الحيوة فقال فيه الشاعر الهجّان مارتيال بأنه لكبر سنّه وفقره لم يعد يشعر بلذة الدنيا . أما علوم الاسكندرية فكانت بالقرن والنصف من حكم الرومان قد انحصرت بدرس المنطق

٦) وكان رئيس مدرسة الاسكندرية لعهد تراجان ورئيس قلم المخابرات بالولايات أيضًا الاستاذ ديونيسوس تلميذ خيرامون له قصائد يتغنى بها بالنيل و بسبق المصريين أهل الارض بالتمدن والفلاحة والزراعة والعلوم و بجمال بلوز يوم الفينيقية الاصل التي نسميها بالبيس و بعز الاسكندرية المقدونية مدينته و بصنم تيبه العظيم الذي تسميه اليونان ممنون مصبّحا حبيبته اورورا (أي الفجر) وهي إلآهة اليونان الخرافية المسماة أيضا ايوس والدة ممنون من أبيه تيطون . أما الصنم فهو حقيقة بالاصل تمثال الملك امنُحتّيف بن طوطمس الرابع

٦) ومن تقرير مؤرخي الكنيسة يظهر بأن ابتداء التبشير بالمسيحية بمصر كان سنة ٥١ من مرقص الانجيلي تلميذ بطرس الرسول ولكنه بالسنة السادسة من هذا العهد لحق ببولس في روما تاركًا الكنيسة الجديدة لعهدة حنانيا ، انما لا يذكر التاريخ عدد المتنصرين الاولين

وذلك لأنهم كانوا من الفقراء والبائسين والثقيلي الاحمال الذين دعاهم يسوع ليكونوا شركاءه في ملكوت أبيه[1] ، أولائك الذين كانت كهنة سيريس تلعنهم وتطردهم من وجهها ، لكن اذ تنصر الاغنياء والاكابر صار التاريخ يسجّل الاسماء و يفتخر بالعدد

(٦٣) وحنانيا هذا هو المشهور بأنهُ كان أول أسقف للاسكندرية والمؤرخ عوزيبوس الذي كتب بعده بمائتي سنة يسرد لنا أسماء الاساقفة الذين خلفوه بدون انقطاع لذاك الزمان لكننا لا نجد دليلاً على جنسيتهم الاَّ من أسمائهم . فان حنانيا قد كان ولا ريب يهودياً كما كان مرقص أيضاً . انما خلَف حنانيا نراه قد صار من اليونان وذلك لسبب انكسار شوكة اليهود وخراب أورشليم من الرومان بهذا الاثناء والاَّ فان اليهود الافلاطونيين لولا ان فيلو المؤرخ يعين لنا أزمنتهم التي هي قبل التبشير بالمسيحية لظنناهم من الاولين قبل أن تختلط الخرافات والتقاليد اليونانية والمصرية بالمذهب الصريح وتغيّر مبادئه السامية الى ارآء خسيسة

(٦٤) وبكل هذه الازمنة الاخيرة كانت حامية الرومان لا تتجاوز حدود برمبول وطاميس من أرض النوبة التي منها كانوا يستجلبون بالنيل حجر الرمل المرغوب للبناء وأما ما وراء هذه الحدود فكان متروكاً لتصرف العربان اسلاف البشاريين الحديثين اولئك الغزاة

(١) ابيه وابيهم والاهه والاههم (انجيل عيد القيامة ليوحنا الرسول)

الذين كان القبط يهابونهم و يعتقدون بأن لا رؤوس لهم وان عيونهم وأفواههم بصدورهم

(٦٥) وما سوى ذلك فان مصر كانت بأتم السكون والراحة ، حتى انه لما القائد وسبازيان عجز عن اخضاع اليهود في فلسطين بالعشر كتائب التي معه امكن لنيرو أن يسحب كتيبتين من حامية الاسكندرية و يرسلهما مدداً له تحت قيادة ابنه طيطوس. ووسبازيان وولده طيطوس هما المرموز عنهما بسفر الوحي بالوحش الاول ذي العشرة قرون الخارج من البحر والوحش الثاني ذي القرنين الآتي براً ضد اليهودية

الفصل الثالث

سنة ٦٨ م الى ٩٧

غلبا اوتو ويتليوس وسبازيان طيطوس ودوميتيان

(١) لهذا الزمان كان قد تم قرن كامل المملكة الرومانية تداول الحكم فيه خمسة رجال بصفة تشبه الارث لكن بموت نيرو انقرض النسل الجوليانى والقلوديانى ولما صعد غلبا على كرسى الملك بارادة الجند حاول أن يوهم الشعب الرومانى اكتسابه الحريّة

(٢) ثم أبدل حاكم مصر بطيبيريوس يوليوس اسكندر ابن حاكم سالف بها من هذا الاسم ومن منشور هذا الحاكم الذي وجدت صورته اليونانية محفورةً على عاديات المرج الكبير بينما الحوادث والانقلابات بالارياف دكت المعابد فيها ومحت الآثار ، يُعلم ما أراد غلبا اصلاحه من المظالم فانه يحرّم اجبار أفراد الرعية على تحصيل الخراج او سجن الاحرار لأجل دين ليس عندهم ما يفونه به ان لم يكن ديناً أميريًّا أو تحويل جابي الخراج على مديون معسر أو أخذ مهر امرأة لوفاء دين بعلها ، ويلغي كافة الضرائب التي وُضعت بالخمس السنين الأخيرة ولأجل ابطال عادة التجسس التي كانت قد فشت بين الناس بعضهم على بعضٍ بارتياح لهـا من الحاكم

بالاسكندرية أعلن بأن أيَّ انسان اشتكى على الآخر بخفيةٍ ثلاث شكايات ولم يثبتهـا يُغرم بنصف ماله ولا تقوم له شهادة او تسمع له دعوى امام المحاكم فيما بعد . ولأن الخراج كان يؤخذ عادةً على المسقي بالغَيْل والدولة صارت تطالب به بحسب مساحة الاطيان زاعمةً بأن مسئولية تعطيل بعض المزارع من انسداد الترعات عائدة على الفلاَّح ، أمر بالعمل بالعادة ومن هذا الباب ما جاء بالحديث عن نبي العرب ، ما سُقيَ بالغيـل ففيه العُشر وما سُقي بالدلو ففيه نصف العشر ، ومن هـذه القوانين يظهر بأن الناس كانت باحتياج للرفق والعدالة

(٣) لكن حكم غلبا لم يطُل لان الذي يرفعه الجند يحطه الجند خلافًا للحاكم المستند على عهـد الامة وذمتها . فبعد سبعة أشهر انتقض عليـه الجند وقتله . وما وجد من النقود بعـد ذلك باسمه مضروبًا بالسنة الثانيـة من ملـكه معناه انه ملك بأواخر سنة ودخلت عليـه سنة جديدة بالملك وهذه كانت عادة الاسكندرية بضرب النقود

(٤) وعند موته سلَّمت روما زمامهـا لاوتو وتبعها المشرق وضربت الاسكندرية النقود باسمه . ثم اذ بعد ايام اتاها الخبر بقتله من جنود الجرمن التي بايعت قائدها ويتليوس ضربت نقودها باسم هـذا لـكنها بعد قليل انكرته أيضًا و بايعت وسبازيان مختار جنود سورية ،

(٥) واذ وافى وسبازيان الاسكندرية بلغه قتل ويتليوس بعد ثمانية أشهر من جلوسه على كرسي روما وان جنودها وجنود الجرمن تريده ففرحت الاسكندرية بذلك وزينت وضربت نقودها باسمه وعليها كلمة « السلام » اشارةً الى انتهاء الفوضى والنزاع الداخلي

(٦) وكان ممن سعى بنجاح دعوة وسبازيان في مصر وهيّأ له استقبالاً لائقًا ، العلماء ديون والفرات وابولونيوس فديون كان خطيبًا يُلقَّب بفم الذهب والفرات كان فيلسوفًا افلاطونيا اقترن فيما بعد بابنة حاكم سورية وقطن روما وفيها اكتسب صداقة بليني الصغير وذكراً حسنًا جداً وأما ابولونيوس وهو أشهرهم وأصله من تيانه بالقرب من طرسوس فكان أول اغريقي طاف بلاد المشرق وأخذ عن حكماء بابل والهند وكهنة مصر علومهم وسحرهم حتى صار يُعدّ واحداً منهم وادّعى بالاتيان بالمعجزات و بالنبوّة ومؤرخه يقول بأن الشجرة المباركة كلمته ودعته بالاستاذ السماوي اما كتاب الوحي الذي رمز الى وسبازيان بالوحش وذكر النبي الكذاب الواقف امام الوحش فانه عني به أبولونيوس كما أنه هو الذي أشار اليه بولس الرسول بانه المنافق الذي سينكشف عنه الغطاء قريبا وذلك لانه كان قد زار طرسوس وانطاكية وافسس وخطب فيهنّ بفلسفته بينما كان الرسول بولس يعظ فيهن ايضًا بالمسيحية

(٧) ولما رأى الاغريق نجاح الشعوذة التي أتى بها ابولونيوس رغبوا

فيها فراجت حرفة الكهنة وشاع ذكر سحرهم فمنهم من ادّعى بمناجاة الارواح ومحاورة الجمادات والبهائم ومنهم من ادعى معرفة أجل الانسان من خطوط جبهته فثبت اعتقاد الجمهور بالسحر حتى ان القديس ايرونوموس لم ينكره فيما بعد ولا ما كان يُنقل عن سحرة الوثنيين واليهود والمسيحيين بناء على أنه علمٌ لا سرٌّ روحاني

(٨) وكان أبولونيوس لائذاً بوسبازيان رافلاً بنعمته ووسبازيان يكرّمه ويصادق على دعوته ليسند بها سلطته امام الجمهور حتى انه لما طلب من هذا المشعوذ أن يدعي له بتأييد ملكه اجابه « اني قد مسحتك أمبراطوراً بسلطة من عندي » فصار المصريون يطلبون التبرك من وسبازيان أيضاً ولما تقدم اليه أحدهم وفي عينيه رمد وطلب اليه أن يبصق عليها زاعماً ان الالهة سيرابيس قد ألهمته ذلك ليشفى ، وآخر قد شُلَّت يده طلب اليه أن يدوسها بقدميه لتشفى ضحك وسبازيان منهما لكنه اذ ألحّ عليه الناس ان يجيب طلبهما استدعى الاطباء واستشارهم فأشاروا عليه أن يفعل لأنه ان أفادهما استفاد هو ايضاً ذكراً وان لم يفدهما لم يضره ذلك وعلى قول المنزلفين اليه بأنه فعل وأفاد . وهذا جائز بمثل هذه الامراض لكن لسبب طبيعي قائم بنفس العليل لا بسرّ في الطبيب

(٩) ويقال ايضاً بأن وسبازيان رأى عجيبة وهي انه دخل يوماً معبد سيرابيس للصلوة ولما انتهى الى الغرفة القصوى حيث الصنم رأى

الشيخ باسيليديس جاثيًا هناك وهو يعهده طريح الفراش بعيداً ثمانين ميلاً عن الاسكندرية فلما خرج سأل الكهنة عن سبب وجود الشيخ بالغرفة فأجابوه بأن لا علم لهم باتيانه المعبد اصالةً ودخلوا الغرفة فلم يجدوا فيها أحداً فبعث وسبازيان بالحال رسولاً لمحل اقامة الشيخ ويقال بأنه وجده ملقىً على فراشه وعلى آخر رمق من الحيوة

(١٠) ثم ان وسبازيان ردَّ ابنه طيطوس لليهودية ليتم فتح اورشليم فزحف طيطوس بجنوده برًّا الى نيقوبوليس ومنها قطع الترعة الى طمويس بالقرب من منديس ثم مشى ليلةً الى تانيس وليلة ثانية الى هيراقليوم وثالثة الى بلوزيوم حيث جاز النهر وبالرابعة كان في قاسيوم والخامسة في اوستراتين حيث أخذ مؤنته من الماء وبالسادسة كان في رنيينوقولورا وبالسابعة في رافيه آخر حدود مصر ومنها دخل أرض فلسطين

(١١) وكانت يهود الاسكندرية لا تبالي بما حل بيهود فلسطين وهيكل اورشليم لانهم كانوا من ثلثمائة سنة وهم يحجون الى هيكلهم الجديد بعينون بالقرب من هليوبوليس، لا بل ان أحدهم يوسف بن متياس الذي اشتهر فيما بعد باسم فلابيوس يوسيفوس المؤرخ كان من عدد الزاحفين مع طيطوس، فلما وصل طيطوس امام اورشليم وأحاط بها كان المدافع عن عالي المدينة القائد سمعان وعن أسفلها والهيكل

القائد يوحنا وهما الشاهدان اللذان يذكرهما كتاب الوحي لكنهما احتلفا على طريقة الدفاع . ورغمًا عن شجاعة اليهود أخذ الرومان المدينة منهم وهدموا هيكلها في شهر ايلول سنة ٧٠ م او على قول اوريجين بالسنة الثانية والاربعين من صلب السيد المسيح وقاد طيطوس من أسارى اليهود حينئذ سبعة وتسعين الفًا لمناجم صعيد مصر وهاجر كثيرون غيرهم لمصر هربًا من الجوع والشقاء راجين المواساة من أهل دينهم هناك لكنهم خابوا لأن يهود مصر خافوا لئلا ايلافهم ينكي الحكام فأنكروهم ورذلوهم وطردوهم فتفرّقوا بالصحراء تائهين ذائقين كل أنواع الهوان والعذاب حتى ان قلب يوسيفوس القاسي ذاته رقّ لهم فيما بعد

(١٢) إلا انه قد فات يهود مصر بأن سقوط عاصمة ملتهم واذلال أهل دينهم من شأنه أن يسوق الى اهانتهم ايضًا فاننا نراهم محتقرين من الاغريق متّهمين من الرومان حتى ان الحاكم لوبوس أقفل هيكلهم في عينون أيضًا بأمر الامبراطور وساق كثيرين منهم بالاغلال الى روما وساق يوسيفوس معهم فكان اسيرًا الى أن عرفه طيطوس فأطلقه

(١٣) ونعم ان ليوسيفوس فضلاً بالتاريخ لا ينكر وعنه نقلنا بعض أخبار اليهود الاّ انه كان رجلاً بلا مروءة ولا ناموس كافرًا بدينه وقومه وامرأته الغريبة لكنّه بردّه على طعن ابيون باليهود واحتجاجه بأقوال

فلاسفة الاسكندرية قد أفادنا أفكارهم وأفكار يهود ذلك الزمان التي لا وصول لنا اليها الآن من باب آخر

(١٤) أما سفر الحكمة المنسوب في بعض نسخ العهد القديم الى سليمان الحكيم فيظهر لنا بأنه من وضع أحد رجال هذا الزمان لأنه يذكّرنا بأقوال فيلو وابن سيراخ ونفسه نَفَس يهودي مصري متنصر قد شاهد أعمال وسبازيان باليهود وعرف اهانتهم من المصريين ويمدح من العيشة الرهبانية ويزعم بأن الله لم يخلق الموت ويعظم الرجل الصالح الذي شُتم وعُيّر وعُذب لقوله بأنه ابن الله وبكلامه عن الخالق وحكمته وكلمته التي بها أوجد الاشياء ترى المطابقة على أول قول جاء بذكر الثالوث من كاتب مسيحي وهو تيوفيليوس أسقف انطاكية

(١٥) ولم يكن الاغريق اكثر ارتياحاً من تصرف وسبازيان معهم لأنهم كانوا السابقين لمبايعته فلم يروا منه من المكافأة الا زيادة الضرائب واذ بلغه بأنهم يعيّرونه بالبخل ويقولون بأنه طالب صديقاً له بستة دوانق كان قد أقرضه اياها شاط غيظاً منهم وجباهم مثلها عن كل رجل منهم ثم عفى عنهم برجاء ابنه طيطوس ورحل الى روما بلقب اليماق أي غسّال الصحون كما كانوا لقبوا سلوقوس قبله ناهب تابوت الاسكندر الذهبي

(١٦) ولبث طيطوس في مصر نائباً عن والده فكان لطيفاً بالمصريين

محبوبًا منهم واذ شاركهم باحتفالهم بالثور الجديد ابيس لابسًا التاج الملوكي ليزيد ببهجة الاجتماع شكاه الاغريق بمزاحمة أبيه على الملك

(١٧) ومن آثار عهد وسبازيان في مصر كان اكماله معبد لاتوبوليس[١] الكبير للالآه اقنيف ، وهو من أبدع بنايات مصر القديمة ، فزيد عليه رواق قائم على أربعة صفوف من العَمَد رؤوسها منحوتة بشكل زهر النافير وعلى سقفها صورة منطقة البروج كما في معبد طنطيرا واسم وسبازيان محفوراً فوق الباب الكبير

دوميتيان سنة ٧٩ م الى سنة ٩٧

(١٨) ولما مات وسبازيان خَلَفه ابنه الأصغر دوميتيان الذي أباح للرومان دين المصريين وأقام في روما معبداً لآلهتهم ايزيس وابنها هوروس ومعبداً آخر لسيرابيس فاشتغل المصورون بعمل التصاوير الممثلة ايزيس وعلى حجرها ولدها هوروس ونقش صورهما الصباغ على فصوص الخواتم وطفق الرومان يقدمون على اقتنائها اقداماً عظيماً وراجت تجارتها حتى ان الشاعر يووينال المجّان قال بأن الرومان قد باتوا يتعيشون من فضل ايزيس،ولشدة حرصهم على طهارة معبدها كانوا يستجلبون ماء النيل لغسله ولاغتسال كهنته . و بنى دوميتيان مدرسةً فيه أحضر لها ما شاء من مكاتب الاسكندرية

(١) غربي منف على نحو سبعين ميلا لجهة النطرية

وزرع لنفسه بستانًا على حافة نهر تيبر الذي فاق بحسن ورده المصري الشتوي حدائق منف والاسكندرية

(١٩) وبزمانه كان الشاعر يوو ينال شيخًا وحاكمًا عسكريًا على أطراف صحراء مصر، فيخبر بأنه وجد الجنود الرومانية هنالك خالعة العذار لا أدب يردعها عن الفساد ولا مروءة تصدها عن الجور على السكان والقضاة لا يقدرون على الوصول الى الحقيقة لمجازاة الجانين لأن الشهود كانوا يخافون من قول الصدق ضد الجند

(٢٠) ولما كان هذا الشاعر مطبوعًا على الانتقاد رأى بعبادة البهايم من المصريين ما يشحذ قريحته فيقول بأنهم لعبادتهم اكثر البهائم لم يتركوا لقوتهم لحمًا يستحلون اكله سوى لحم بني آدم ويستشهد على ذلك بما رواه من قتال كان بين مدينتي عمبس وطنطيرا البعيدتين مائة ميل عن بعضهما وكان أهل عمبس يعبدون التمساح وإلهًا آخر برأس تمساح اسمه سواق بينما أهل طنطيرا كانوا يعبدون الثور ولهم براعة بصيد التمساح فالتقوا يومًا ما بسيران كان لهم وتقاتلوا فانهزم أهل عمبس إلاَّ رجلاً منهم عثر وسقط فمسكه أهل طنطيرا ومزَّقوه واكلوه . ولأن اسم ملكة السماء عند المصريين هو ايزيس واسم الكرّاث ايزي ظن يوو ينال بأن معبودهم هو البصل فزاد بقوله عنهم انهم بعد عبادتهم البهائم والطيور والاسماك والبقول لم يفتهم معبود سوى إله العفة

(٢١) وحكى ايضا عن قتال آخر شاهده بين مدينتي اخيرينخون وقينو بوليس لأن هؤلاء كانوا يعبدون الكلاب فاصطادوا سمكةً يعبدها الآخرون اسمها اوقصيرينخوس واكلوها فقام أهل السمكة يقتلون الكلاب و يأكلونها واشتعل القتال بين الفريقين الى أن صدتهم جنود الرمان عن بعضهم

(٢٢) أمّا المؤرّخ باوتارخ فانه مع علمه بوجود هذه العقائد عند الجهال من الناس يقول بأن اعتقاد الكهنة انما كان باله غير منظور وانهم كانوا لا يكتفون بالصلوة دون الحسنات و يزعمون بأن كلما لاضرر منه حلال وما ضرّ فهو الحرام[1] فلو حركوا ناراً بالسيف كان ذلك حراماً لأن النار تتضرر بفرنده . ويقولون بأن ليس كل من لبس الكتان واغتسل وحلق رأسه بكاهن وان سُئلوا عن اسم الاله أجابوا بأن الشمس واحدة أما اسماءها فكثيرة بلغات الناس وهكذا الاله . وكان لهم عيد للاله طوط يحتفلون به ليلة العشرين من القمر يأكلون فيها العسل والتين اليابس و ينشدون « طيبة هي الحقيقة» ولكنهم بوجه الاجمال كانوا كسائر أهل المشرق يعتقدون بوجود إله صالح و إله آخر شرير و يعتقدون بأن الاله الصالح مركّب من ثلاثة بالعدد الذي هو عندهم صورة الكمال ، والزاوية التي بها يعبّرن

(١) وهو مذهب فلسي جليل عند من تبصر

عن عوزيريس وايزيس وهوروس . وكان عيدهم الكبير تذكاراً ليوم حزن ايزيس على بعلها عوزيريس الذي قتله تيفون ونشر أشلاءه وبددها فجمعتها ايزيس ودفنتها ثم نشأ ولدهما هوروس وثأر بقاتل أبيه ، وانه كان لتيفون ابنان اسم احدهما هييروسوليموس والآخر يهودا هما أعداء المصريين الكننا لا نرى أثراً يدلنا على هذه القصة بين رسوم ثيبة القديمة فربما انها مما جد بالارياف ومنها ركّب الاغريق حكايتهم اللطيفة عن حزن وينوس على معشوقها ادونيس أو انها مأخوذة عن حكاية استارته الالهة الفينيقية (١)

(٢٣) ثم بينما كنا نرى هوروس بصورة فتي وعلى رأسه تاج صرنا نراه بصورة ولد صغير وأصبعه على فمه ، يعنون بذلك انه قاصر عن الكلام ، فالرومان لم يفهموا هذا الرمز وحسبوه اشارةً الى الصمت فسموه إلاه الصمت

(٢٤) ولما تمّت الاحدى عشرة سنةً لحكم دوميتيان طلب من السناتو اقالته فلم يقبلوه وبايعوه لعشر سنين ثانية فاحتفلت الاسكندرية بذلك احتفالاً كبيراً وضربت نقوداً جديدة تؤرّخ جاوسه الثاني أتت من أبدع النقود المضروبة لذاك الزمان

(١) وبمثل هذا اليوم تحتفل الان مصر بعيد شم النسيم .

الفصل الرابع

سنة ٩٧ م الى سنة ١٨١

نروي تراجان هدريان والانطونين

(١) النقود هي الاثر الوحيد لحكم نروي على مصر ولكنها تكفي للثناء عليه لأنها تؤرّخ رفعه الجزية عن اليهود التي كان قدرها نصف مثقال عن كل انسانٍ منهم وهو القدر الذي كان قديمًا مفروضًا عليهم لخدمة الهيكل

تراجان سنة ٩٨ م الى سنة ١١٧

(٢) اما أجمل النقود المسكوكة لذاك الزمان فكانت التي لتراجان للسنة الحادية عشرة من ملكه فانها بدلاً من تشخيصها الانتصارات الامبراطورية وفيضان النيل والالعاب والتعبّد لسيرابيس صارت تنقش بالرموز المصرية واليونانية لا بل ان كميتها بهذا العهد والذي بعده فاقت كمية كل النقود المضروبة قبلها واكثرها كان من النحاس بقطع صغير من وزن مائة وعشرة شعيرات الى مائتين وعشرين شعيرة وهو ما صارت العرب فيما بعد تسميه المثقال الذي

هو تسع وتسعون شعيرة و بعض هذه النقود كان من فضة لكنها غير خالصة

(٣) ورغمًا عن احتقار الرومان المصريين واعتبارهم آداب وصناعة اليونان فانهم كانوا يثقون بأطباء المصريين و يقصدون مصر لمشاورتهم فكان أحد أطباء فيقروا منهم ولما هربوقراط المصري شفى بليني الأصغر من مرض كان بعينه كافأه هذا بأخذه له فرمانا يجعله رومانيًا ، واذ لم تجزله القضاة هذه الجنسية لسبب نسله الشرقي تكلفوا جعله اولاً يونانيًا وثمّ رومانيًا اي حرًا

(٤) ومن اقتصادات تراجان الحسنة الذكر كان تخزينه بأهراء روما خراج سبع سنين من حبوب مصر احتياطا من جدب يطرأ على زراعة مصر و يقطع واردها فجرى خلفه على هذه القاعدة سنينا وأتى زمان أمحلت فيه مصر ورأت الاسكندرية انقلاب الآية بأن روما صارت تمدّها بالطعام وتفتخر باقتصادها وكرمها على المصريين

(٥) ولهذا الزمان كانت الاسكندرية لم تزل قطبا لتجارة المشرق مع أوروبا ومرسًى لمراكب سورية تزدحم فيه السفن بشراعاتها المختلفة الالوان والاشكال وميدانًا لتجار المسكونة من كل لون وزيّ ولسان

(٦) أما أهلها فانهم على قول أحدهم ديون الملقب بفم الذهب لم يكونوا حسني السيرة فقط بل ان همهم كان بطونهم وفروجهم وسباق الخيل وحرفتهم التهريج ليضحكوا الرومان بسفاهتهم

(٧) وبعد أن كانت الرومان قد أخفقت بزحفها ضد العرب في عهد أغسطوس نراها الآن قد احتلّت حجر عاصمة النبط ولم تزل آثار احتلالهم لها اربعمائة سنة ظاهرة للآن

(٨) ومن آثار هذا العهد وبزمان حاكم مصر لوقيوس سولبيقيوس سيميوس ما زيد على معبد بانوبوليس[1] بالصعيد باسم تراجان بالسنة الثانية عشرة من ملكه ورواق معبد سيرابيس وايزيس بالمرج الأعلى بالسنة التاسعة عشرة من ملكه وأيام حاكم مصر مرقس روتيليوس لوبوس وكان تراجان بأول سنة من ملكه قد بنى معبداً صغيراً في دنديره بالقرب من معبدها الكبير تذكاراً لزوجته بلوتينا باسم وينوس الفتاة ومع سكوت التاريخ عن حوادث هذا الزمان نفهم من صورة نقود الاسكندرية للسنة الرابعة عشرة لتراجان قدومه اليها آيبًا من فتح أرمينيا والعراق وبلاد العرب راكبًا على عجلة تجرها أربعة أفيال ، ومن صورة نقوده للسنة السادسة عشرة من ملكه نفهم اقلاعه عنها بهيئة الإلاهة ايزيس ماسكةً شراعًا تدفعه الريح عن جزيرة الفنار

(٩) وبهذا الزمان حصل اعتناء باصلاح الترعة التي بالقرب من

(١) وتدعى أيضاً خيميس وهي الآن اخمم ومنها خرج ذو النون الاخميمي رئيس الصوفية

بوبسطى التي هي الآن تل البسطه وكان أول خرقها من نيقو ثم اعتنى بها فيلادلفوس لكن اضعف مصب النيـــل اليها بهذا الزمان رأوا أن يجعلوا رأسها فوق ماكان لحفظها من تسطي الماء المالح فابتدأوا فيها من بابل بالقرب من منف آخذين بها إلى هليو بوليس ثم شيناوترانوروم وهيروبوليس وسيرابيون إلى البركة المالحة العليا ومنها إلى البحر الأحمر وهناك بنوا لها سدًّا بموضع سمّوه قليسمون على عشرة أميال جنوبًا من ارسينويه التي كان تراكم الرمل على ساحلها قد أبعدها عن البحر ولا يُعلم كم طال استعمالها بل المعلوم بأنها تعطّلت من عدم الاعتناء بها حتى أصلحها العرب عند استيلائهم على مصر. وعليها بزمانهم ركب حجاج الافرنج بطريقهم لبيت المقدس

(١٠) ولما كانت الاسكندرية أم التزوير الكنائسي فبلا شك أن منها خرج تركيب وصايا الأسباط الاثنى عشر من تلفيق يهودي متنصر فأثار به شجا المسيحيين لتبشيره بعود المسيح على رأس الألف سنة واليهود لاشارته بقرب رجوع مُلكهم فهاجوا ضد الرومان وأقلقوهم

(١١) والأرجح أنه بهذا الزمان أيضا نشر الشاعر حسقيل نشيده الحماسي باللغة اليونانية بخروج اليهود الأول من مصر كأنه يغريهم بالخروج منها ثانية، لكن لم يصل الينا من هذا النشيد سوى بعض مقاطيع

(١٢) فوجود مثل هذه التصانيف كان إمّا نتاج حركة أفكار يهود

ذالك الزمان إماً سبباً لها لأننا نراهم بالسنة الثامنة عشرة من هذا العهد هايجين ضد الاغريق ، وبالتي بعدها عاصين على الرومان . وكانوا بأول الأمر الفئة الأقوى بالقرى فهرب منهم اليونان للاسكندرية لكن لما اجتمع هؤلآء مع إخوانهم بالاسكندرية صاروا هم الحزب الأقوى فوقعوا على اليهود فيها وعاثوا فيهم . ولما انتصر لهم يهود الفيروان تحت قيادة أحدهم لوقواس تفاقم الخطب حتى اضطرّ الامبراطور لارسال جيش جديد وأسطول لمحاربتهم فأصاب منهم عدداً وافراً وهرب الباقون للبراري والقفار تايهين يتلصّصون

(١٣) فبمثل هذه الحماقات سقط اعتبارهم وضاعت امتيازاتهم بالمملكة ومع خراب هيكلهم بأورشليم وقفل هيكلهم الآخر في عينون بأمر وسبازيان أصبحوا أذلآء قانطين فمالت أفكارهم للتوراة وتأويل النبوات المشيرة إلى زمان إتيان المسيح فتنصّر منهم كثيرون

إذا عصفت ريح الغنى قصفت أخا

عنآء ولو بالفقر هبّت لربّتِ

وربما أنهم بهذا الزمان قد كُلّفوا ثانية لدفع الجزية التي كان نروى قد عفاهم منها

هدريان سنة ١١٧ م الى ١٣٨

(١٤) في السنة السادسة من حكم هذا الامبراطور النشيط نراه زائراً مصر بعد أن كان تفقد أحوال اسقوطلاندا شمالاً راغباً الاطّلاع على أحوال مملكته برمتها . وربما ان الذي دعاه لزيارة مصر كان قتالاً ثار بين أهل منَف وهليوبوليس لأجل عجل ادعى فريق منهم بأنه أبيس والآخر بأنه مناوس بعد آن كان قد مضى لمصر عدة سنين وليس لها عجل مقدّس . وإذ كان هدريان صاعداً بالنيل لزيارة ثيبه سأل المنجمين عن بخته فأجابوه بأنه لا تتم له السعادة حتى يفقد أعز ما عنده وكان نديمه الشاب انطينوس يسمع ذلك فقال اجعلني أن أكون أنا الفدآء ورمى بنفسه للمآء بالقرب من القرية المسمّاة بيسه فهلك وحزن الامبراطور لفقده حزناً عظيماً فشاد بذلك المكان مدينةً تكون تذكاراً لمروءته سماها انطينو بوليس وزينها بالمعابد ولم تزل آثارها ظاهرة للآن ازآء هرمو بوليس على الضفّة الشرقية من النيل وصار الرومان يكرمون تمثال انطينوس كأحد الآلهة ويقيمون له عيداً بالألعاب والسباقات مما كان يستغرب به أهل الصعيد باكرام الآلهة ثم بالسنة السابعة من وفاته ضربوا له نقوداً بالاسكندرية باسم انطينوس الفنيّ

(١٥) واجتمع الامبراطور بعلمآء الاسكندرية وحادثهم وزار ضريح

پومپي وأنفق مبلغًا كبيراً على زينـة البلد وبنايات جديدة فيها فأكرمه أهلها بأن أبدلوا اسم شهر دسمبر إلى هدريان ولكن إذ لم تتّبعهم المملكة أعرضوا عنه . ومن العلماء الذين أكرمهم هدريان كان ديونيسيوس استاذ الفلسفة في مليتوس وافسس و بوليمون الخطيب الذي كان يجتال في انحاء المملكة بحاشيته وخدمه على نفقة الدولة للخطابة

(١٦) أما علماء الاسكندرية بهذا الزمان فكان منهم اپيان مؤرخ الفتوحات الرومانية والمنطيقي ابولونيوس الذي لنا منه حكاية الراعي الذي يقال بأنه رقد سبعًا وخمسين سنةً ثم انتبه [١] وحكاية رجل مات وظل شبحه يأتي بيته إلى ان ضجرت امرأته ولم يتركها حتى أحرقت موميته

(١٧) وعاد اليهود بهذا الزمان لعصيانهم فانهم سنة ١٣٠ قاموا بأورشليم ضد واليها تنيوس روفوس وحشد لهم يهود مصر والقيروان لكنهم أخفقوا ونُكّل بهم

(١٨) ومن الكتابات العديدة على صنم ثيبه العظيم تعلم زيارة هدريان التانية لها مع زوجتـه صابينا بالسنة الخامسة عشرة من ملكه وهي سنة ١٣١ التي نقود الاسكندرية تشير إلى دخوله اليها ، وتعلم أسماء

(١) ولعل هذه الحكاية هي المشار اليها بخبر اهل الكهف الوارد بالقرآن أو ان هذا خبره مما زعموا انه حصل بعد هذا الزمان

بعض ولاة مصر الذين لم يذكرهم التاريخ وإلاّ فان أسماء الزائرين تكاد تغطي ساقي الصنم ولو أمكنهم لملأوا الثلاثة والخمسين قدماً منه بتفاهاتهم المعتادة أما الصنم المذكور الذي أصله من حجر واحد كان حينئذٍ مكسوراً ولما رأته الملكة صابينا ورآه قبلها استرابو ويوونيال وبوزانياس كان نصفه على الأرض وإذ لم تسمع منه الملكة بأول صباح نغمه المشهور تكدرت فبالغد سمعته (١)

(١٩) ومن هذه الكتابات أيضاً عدة أبيات باللغة اليونانية ايوليك القديمة التي هي ألطف مخرجًا من الدوريك تؤرخ زيارة هدريان وملكته المدينة كما أننا نجد اشارة لهذه الزيارة بصور من الفسيفسا فى بالسترينا التي تبعد ليلتين عن روما ، تمثل النيل وتمساحًا سابحًا فيه وحصان النهر وزهر البشنين والامبراطور قائمًا بحذآء معبد هناك ومناظر من الصعيد والسودان وحيوانات كالزرافة والفهد ووحيد القرن والطير الخرافي فينكس وبئر اسوان الفلكي . والافرنج تسمي الفسيفسا موزاييكا وتزعم بأنها محرفة من اسم موزيوم الاسكندرية حيث وجدوا آثار هذه الصنعة لكن لا يبعد أن يكونوا قد أخذوا هذا الاسم من العرب فيكون محرفاً من مجزَّع وهو أصلاً من احجار

(١) قبل انكساره لم يكن له نغم الذى سببه امر طبيعي بصادف أحياناً بالصخور المنخورة عند الفجر من الهوآء فيها متى سخن فيخرج صافراً

طبيعية أما الآن فأكثره من حجارة مُصْطنعة ولها معمل بنفس الواتيكان قد شهدناه فيه

(٢٠) وها ان سبعين سنة قد مضت الآن على التبشير بالمسيحية من مرقص الانجيلي وصار عدد المسيحيين بالاسكندرية كثيراً إلاَّ ان حالة البلاد اجمالاً لم تتحسن فاننا نرى هدريان يكتب حينئذ لصديقه سرويانوس ما فحواه

« من هدريان اغسطوس إلى سرويانوس ، سلام . أما بعد فمصر التي كنت تطنب لي في مديحها أيها العزيز فاني أجد أهلها قوماً بلا رصانة ولا تمييز فمنهم من يعبد سيرابيس ويدعي بأنه مسيحي ومنهم من هو من كهنة المسيحيين ويكرم سيرابيس وليس منهم كاهن ولا حاخام أو سامريّ إلاَّ ويعمل بالسحر وكلهم مجبولون على حب الفتنة والصلف والضغينة لكنهم أغنياء أصحاب همة وأهل صناعة بعمل الزجاج والقرطاس والكتَّان وعندهم حُرَف للعرجان والعميان والمكتوعين يعبدون إلهاً واحداً هو لا شيء وها اني قد أوليتهم كل إحسان وأعدت لهم امتيازاتهم وزدتهم اعلهم يشكرون ويحسنون طويتهم »

ونرى على نقود السنة السادسة عشرة من هذا العهد صورة الملكة متكئة على أريكة في مركبها اشارةً إلى سفرها من الاسكندرية

(٢١) وبالزمان الأخير إذ صار سيرابيس أعظم آلهة المصريين قابض الأرواح والديَّان في اليوم الأخير ضعف يقينهم بغيره . ولما سُئل هاتف الغيب عن الإله أجاب « أنا را ، أنا هوروس ، أنا عوزيريس » أو كما تقول الروم « أنا أبولُّو أنا الرب أنا باخوص » أنا محرّك الساعات ومدبّر الفصول مجري الهواء والأعصار ومعيد الليل والنهار أنا رب الأفلاك وأنا النار الأبدية القرار . فمن هذا الاعتقاد نتج اشتباه هدريان بدين القوم . وكان يريد أن يضيف المسيح إلى عداد آلهة الرومان لكنه كان يكره إقامة التماثيل بالمعابد حتى صارت العارية منها تعزى اليه فيما بعد . وكيف كان الأمر ليس من الغريب وجود نزعة من عقائد الأقدمين عند المتنصرين لذاك الزمان

(٢٢) فان المسيحيين الأولين كانوا يهوداً من معاصري الحواريين وحدوا بالمسيح المنتظر تتميماً لدينهم . وأما القبط والاغريق فانهم أحالوا الدين لما وافق خرافاتهم الأولى ، وإياهم عنى بولس الرسول بتحذيره تيموتاوس من المنافقين . وكان قيرنطوس أول من سعى لتطبيق المسيحية على فلسفة الأقدمين فكان يزعم بأن يسوع هو روح من الأرواح التي يبعثها الأزلي من زمان لزمان لتسوس العالم الأرضي ، وكثيرون يظنون بأن سفر الوحي هو من وضعه لما فيه من المشابهة لهذا المذهب

(٢٣) أما مؤسس المسيحية على المبادىء المصرية فهو باسيليديس القائل

بأن الهدى من الله وان المؤمن معصوم من الخطيئة وان المادة أزلية كالهيولى واغدود هو الإله الواحد ذو سبع صفات يسوس بها الكون (ربما هي العقل والكلمة والفكر والحكمة والقدرة والعداله والسلام المذكورة بسفر الوحي) وان الشيطان هو إله الشر وكان يسمي إله الخير « ابراقاس » لأن معناه لا تؤذني ، ومجموع أعداد حروفه يجاوب على عدد أيام السنة ٣٦٥ فكانوا يتبركون بهذا الاسم ويكتبونه على احراز يلبسونها للوقاية من الأمراض والهفوات. كما ان من وصف المصريين إلههم هوروس بالخنفساء وصف القديس امبروز يسوع بالخنفساء الصالحة

(٢٤) ومن معاصري باسيليديس كان قربوقراطيس الاسكندري الزاعم بأن النفوس إذا شعرت بصفاتها الإلهية التي لها قبل التجسد تألهت وأن يسوع كان ممن أشعر بها ، وكان يقول بأن آداب السلوك غير ضرورية . وخلفه ابنه ابيفانس على هذا المذهب وزاد عليه شيئًا من الفلسفة الافلاطونية . وبعده ظهر ايزيدوروس بن باسيليديس يعلم بمذهب أبيه فى هذا العهد . وبالعهد التالي ظهر والنتينوس الصعيدي المولد الجاعل الإله من ثلاثين اقنومًا . وظهر غيره بمذهب يُسمَّى عوفيتا وهو إكرام الحية فقالوا بأنها المسيح أو أعظم منه لأنها أول عارف بالخير والشر وكانوا يصنعون أحرازًا بصورتها وباسم يهوه أيضًا كما باسم ابراقاس

(٢٥) وكافة هؤلاء القوم كانوا يعتقدون بالسحر والرقى ولهم كتب بالتعاويذ والخطاب للآلهة والشياطين والاقسام عليها لتجيب غرضهم وكتب أخرى بالتنجيم والفراسة ومكالمة الجمادات مع أن الفراسة علم طبيعي ومكالمة الجمادات من الشعوذة المحضة التي نسميها التكلم من البطن وكتب الرقى انما أساسها فكان ما نعرفه الآن « بالهيبنوتيسم » العلم الطبي

(٢٦) ثم انا إذا نظرنا إلى الدين المصرى القديم وجدنا بأنه قد جاز فيه بأن عوزيريس يُقتل وأن يكون مع رآ وهوروس إلهًا واحداً وأن سيكون للبشر فادٍ منهم يومَ الحساب

(٢٧) أما الكاتب المسيحي الذي يعتمد عليه بعد المعاصرين للحواريين فهو يوستِن اليوناني الأصل السامري المولد الذي درس الفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية وتنصَّر عن اقتناع عقلي ثم ذهب لروما مبشراً بالدين الجديد ولأنه أهان الأصنام فيها قتله الامبراطور أنطونيوس بيُّوس وصار يُعرف بيوستِن الشهيد

(٢٨) وكانت العادة قد جرت بأن استاذ الفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية يكون أثينيًّا فكان بالقرب من هذا الزمان استاذها اثيناغوروس ، لكنه بعد قليل تنصَّر وهو ويوستِن كانا أول العلماء المتنصرين لذلك الزمان لكنه لمَّا خاطب الامبراطور ماركوس اوريليوس بهذا الدين لم يتجاوز فيه الشهادة بالبعث والتوحيد

وبأن المسيح هو حكمة الخالق وإرادته وبأن المحبة واجبة حتى الأعداء .

ولا عبثٌ والناس لم يخلقوا سدى وإن لم تكن أفعالهم بالسديدةِ

(٢٩) وبعهد هدريان كان ضرب النقود غزيراً وبشكل جديد فان منها ما كان عليه صورة مركب يدفعه الهوآء اشارةً إلى قدوم الامبراطور لمصر بالسنة السادسة من جلوسه ، ومنها بالثامنة بصورة أنطينوس كأحد الآلهة،ومنها بالحادية عشرة عند تجدد انتخابه لعشر سنين ثانية ما عليه اسمآء بعض جهات مصر والحيَّة الصالحة والشريرة وصورة ايزيس ربة العشق وسيرابيس ربّ الخوف وصورتهما مع ولدهما هوروس قائمًا على نسر بعد أن كانوا يمثلونه برأس نسر فقط .

انطونيوس بيوس سنة ١٣٨ م الى ١٦٢

(٣٠) ولما انتقل الملك إلى أنطونيوس بيوس صادف ذلك انتهآء الألف واربعمائة وستين سنةً من دور الشعرى اليمانية الكبير (١)، وهي النجم المسمّى أيضًا سيريس والكلب الذي يطلع من

---

(١) أي ان الشهور ترجع فيه الى مدارها الاول وهو ما نسميه الافرنج « العام البلاطونيك » كما نسمي الهوى العذريّ « العشق البلاطونيك » أما بخلاف ذلك فالنسبة الى افلاطون وفلسفته هى « بلاطونيست أو بلاطونيسيان »

جنوب مصر بأيام قليلة قبل فيضان النيل ويبتدئ المصريون سنتهم من طلوعه وبدوره هذا ينتظرون رجوع طيرهم الخرافي ويتيمنون به فأقاموا لذلك الافراح وضربوا النقود بصورة هذا الطائر الميمون الذي تسميه اليونان فينيكس المذكور آنفا وفي هذا الزمان كانت مصر بطمان وأمان وفيضان النيل لا ينقص عن ستة عشر ذراعا في مَنَف وهو الحد المرغوب من قبل ستمائة سنة بزمان المؤرخ هيرودوتوس ومنه يتضح بأن سطح أرض البلاد لم يرتفع عما كان قبل هذا الزمان الطويل

(٣١) ولما شاعت حرفة التنجيم بين الاغريق صارت الاسكندرية تضرب نقودها بصور الابراج . وفقرآء اليهود وجدوا بذلك وسيلة لاكتساب المعيشة فنسآءهم كنّ يجلسن بالأسواق ينجمن للناس ويفسّرن الأحلام . ومن أوراق وجدت مدفونة مع مومية في ثيابه تفصّل طالعًا بتمامه بالدرجة والدقيقة مع أبراج الشمس والقمر والكواكب بذلك الوقت أمكن لنا معرفة زمان هذا الامبراطور تمامًا بحساب الفلك . ووجد أوراق غيرها تفصّل أبراج كل ساعة من هذا الزمان بغاية الدقة والضبط لاستعمال المنجمين

(٣٢) لكن لم ينحصر علم الفلك حينئذٍ بالتنجيم فان قلوديوس بطليموس الفلكي والجوغرافي كان إذ ذاك زينـة مدرسة الاسكندرية واليه ينسب اكتشاف دوران الشمس والقمر والكواكب حوالى الارض من الشرق للغرب مرّةً بالأربعة والعشرين ساعة ، والحال أن هذا

علم قد عرفه الأقدمون وهو أثبته بالبراهين فصار ينسب اليه وبوضعه المجسطي مدوناً الكسوفات التي عرفتها بابل والاسكندرية في مدة الثمانمائة سنة قبل زمانه قد أمكن لنا تحديد زمان ملوك بابل والفرس واليهودية ومصر تحديداً باتًّا . وبتفصيله طريقة عمل الكرة الأرضية ورسم الخارطات يكاد أن يحيط بهذا الفن على ما نعرفه الآن كما ان افاداته الجوغرافية تفوق بدقتها كل وصف من نوعها ظهر لذاك الزمان . وكتابه بالانغام هو أحسن ما لدينا من أرآء الأقدمين بهذا الفن

(٣٣) وبهذا الزمان أمر الامبراطور بمساحة السكك العسكرية بالمملكة وسموا ذلك الدليل الانطونيني فكانت سكك مصر العسكرية ستًّا أولها من النوبة إلى بابل على طول حافة النيل الشرقية وثانيها من منف شرقاً إلى هليوبوليس وحي اليهود وقليسمون حيث تمر بترعة تراجان للبحر الأحمر وثالثها من منف إلى بلوزيوم متصلةً بالثانية على مسافة ثلاثين ميلاً ثم عند بابل ومفترقة عنها عند شيناوترانوروم ورابعها من الصحرآء إلى البحر الأحمر عن طريق سيرابيون خمسين ميلاً من قليسمون وهي أقصر من الثانية بنحو مائة ميل تمر بحافة النيل الغربية عند هيراسيقاميون بالنوبه إلى الاسكندرية منحرفة عن النيل عند اندروبوليس على بعد ستين ميلاً من الاسكندرية وخامسها من فلسطين الى الاسكندرية على شاطىء البحر المتوسط

من رافعه إلى بلوزيوم صاعدة برًّا هربا من طوفان النيـل بتلك البقعة ثم لاحقةً بالسكة السالفة عند اندرو بوليس وسادسها من قبطوس على النيل إلى برانيقه من البحر الأحمر وبينهما عشرة منازل أو ما نسميه أيضاً قُناقات بين كلٍّ منها ليلة أو خمسة وعشرون ميلاً. نعم ان سيينه كانت آخر حدود مصر الرومانية إلاَّ إن سلطة الرومان لم يكن لها فعل فوق هييراسيقاميون ابتعاداً عن مجاورة عربان تلك الجهـة من أسلاف البشارين وغيرهم أصحاب العيون المخيفة

(٣٤) ومن المؤرخ الريَّان نعرف كيف كانت أحوال مُدُن شواطيء البحر الأحمر بذلك الزمان والمسافات بينها والسكان فيها وأهمية تجارة مصر الداخلية والخارجيـة الاّ ان إذ كانت الأموال الواردة لمصر تنتقل من يد ليد وبلد لبلد بطريقها من بلاد العرب كان الرومان يجهلون مصدرها الهندي والحبشي ويظنونه عربياً. فان المصريين كانوا يرسلون نسيج الكتان وأواني الزجاج والنحاس والصفر لسك النقود والحديد لعمل السلاح ويستجلبون العاج وسن الكركدنّ والفولاذ الهندي والحبر والحرير والعبيـد وصدف السلحفاة والمرّ والبخور والتوابل ولتسهيل غايات تجارهم في البلاد العربية كانوا يهدون ملوكها الخيـل والبراذين وأواني الفضـة والذهب. ويذكر هذا المؤرخ تجارتهم بالحبوب والزيوت

والقند ومراكب الخوص وهي أول مرة عثرنا بها على ذكر القند ومع ذلك يظهر بأنه كان صنفاً قديماً معروفا ، إذ لو يكن حديثا لكان المؤرخ أشار اليه خاصة

(٣٥) ومن بعض الكتابات على ساقي أبي الهول بالقرب من الاهرام نعلم زيارة هذا المؤرخ له وخبراً آخر كنا نجهله وهو وجود الأطباء بمعية الجيش الروماني فان أحدهم المسمى اسقليبيادس الكاتب اسمه هنالك يقول بأنه كان طبيب الفيلق الثاني ومن كتابة على قطع من الخزف بقلم رومي ردي بصفة وصولات بالرسومات على صادرات الحنطة والفول والجزية نعلم بأن الجزية التي كانت ستة عشر درهماً في عهد وسبازيان صارت بعده سبعة عشر درهماً فضة وهي بالنسبة لحال ذاك الوقت تحسب فاحشة إلا أن تكون مضروبة على أرباب البيوت من الرجال فقط

(٣٦) وبهذا الزمان صار بناء معبد بالمرجة الكبيرة للإله عمون اقنيف وفيه تمثال الامبراطور رافعاً قرابينه لهذا الإله ولعوزيريس وايزيس وهوروس. وبنى أيضاً هذا الامبراطور مرسحاً بالاسكندرية لسباق الخيل ، وبابين للمدينــة سمى أحدهما المواجه للبحر شمساً والآخر المواجه لحيرة مريوط قمراً ، وفتح بينهما طريقاً واسعاً يخترق المدينة عرضاً لكنه لم يكن له ايخلو زمانه من البلابل فان أهالي الاسكندرية أثاروا فتنةفيهاوقتلوا الحاكم وينارخوص فاستحقوا عقاب الامبراطور لهم

مارقوس اوريليوس سنة ١٦٢ م الى ١٨١

(٣٧) ثم انتقل الملك إلى مارقوس اوريليوس فضربت الاسكندرية نقودها باسمه ، والتي للسنة الخامسة من جلوسه ترى عليها صورة انسان عظيم الجثة متكئا على تمثال أبي الهول وحاملاً بيده قرناً ملؤه فاكهة وعنبا وحوالي العلج بين يديه ومن فوقه ستة عشر طفلاً تُسمى بلغة الرومان « كُوْبيد » وكل ذلك رمزٌ الى النيل العظيم وبركته وارتفاعه ستة عشر ذراعا ، وبلغة الرومان « كوْبيت ». وكان وسبازيان نقل صنماً على هذه الصورة إلى روما وأقامه في قصر السلام بصفة إله النيل . وبالسنة ألحادية عشرة من هذا العهد ترى على النقود صورة الإلاهة ايزيس قابضة شراعاً تدفعه الريح لجوبة المنارة اشارةً لقدوم الامبراطور إلى الاسكندرية

(٣٨) وفي السنة المذكورة انتقض الجند المؤلف من العربان المستأجرة وتفرق في القرى يعبث فيها فزحف القائد اوديوس قاسيوس ضدهم ونكّل بهم وإذ عاد بجيشه منصوراً اعبت الحمية برأس الجند فصاحوا باسمه امبراطوراً على المشرق فأذعن لهم ومشى بهم الاستيلآء على سوريا تاركا ابنه ميقيانوس حاكماً علىالاسكندرية فاستقبله جيش سوريا بالخضوع لكن إذ بعد قليل جآء الخبر

بزحف مارقوس ضدّه نكثوا عهدهم معه وقتلوه وقتلت جنود الاسكندرية ابنه وعادت البلاد اطاعة مارقوس

(٣٩) وهو بوصوله الاسكندرية أعلن عفوه عما كان ، وأكثر ما فعل بأولاد قاسيوس الآخرين فانه أبعدهم تاركاً لهم نصف ميراثهم وكان يتجول بالمدينة كأحد الأفراد ويزور المعابد ويحضر مجالس العلماء بالموزيوم وأقام تمثاله بالمدينة لابساً الجبة الرومانية لا ، الملوكية كسلفائه

(٤٠) وكانت الاسكندرية لم تزل قطباً لعلوم الدنيا بأسرها لا مثيل لمكتبتها ولم تكن بعدُ قد أثّرت فيها المسيحية بل كان اشتغال النسّاخ العديدين بجوار المكتبة ، وأكثرهم من البنات ، بنقل كتب الأقدمين بالخط الرومي الديواني والنسخي

(٤١) وأكثر كتب هذا الزمان بالخط الديواني كانت على الرقّ وقليل ما وصل الينا منها ككتاب مسامرة الالبّاء للعالم أثيناوس من نوقراطيس بالقرب من سايس(١) على حافة النيل الغربية الذي يقول بأنه جمعه من ثمانمائة كتاب مختلفة المواضيع . وقاموس والبيريوس هر بوقراطيون الاسكندري يفسّر فيه كلام خطباء اليونان العشرة .

---

(١) الآن صالحجر

والفتاوي الاثينيّة و يذكر سير الأشخاص الذين ألمع اليهم الخطباء. وكتاب بالعروض يُسمّى الانخير يديون من تأليف المنطيقي هيفاستيون. وكتاب باصطلاحات التعبير والكلام المنحوت بسائر الفنون لذلك الزمان تأليف المنطيقي يوليوس بولوقس من نوقراطيس أهداه للامبراطور قومودوس. ونسمع بكتاب من تأليف خيرون معاصر بولوقس بأخبار كهنة مصر وتراجم ملوكها لكنه يا للأسف مفقود

(٤٢) ومن كتب هذا الزمان أيضاً كتاب المحاورات للوقيان كاتم أسرار حاكم مصر يُستنتج منه ضعف اعتقاد الجمهور بمذهبهم القديم لأننا نراه يتجرّأ على السخرية من عبادتهم للبهائم والأباريق ومن حزنهم لموت العجل ابيس وتصديقهم بالسحر ونصبهم الموميات حذاءهم وهم على الطعام كأنها تشاركهم به ووضعها رهينةً عند حاجتهم للاستقراض وحلقهم رؤوس شبانهم إلاّ ذوأبة يرخونها فوق اذنهم اليمنى كعادة ملوكهم في ثيبه من قبل الفين وخمسمائة سنة

(٤٣) لكن لم يتمّ هذا العهد حتى تواترت الدلائل على انتشار المسيحية في مصر وأعظم برهان على ذلك أننا نرى مطران الاسكندرية مضطراً لرسم ثلاثة أساقفة لمدن الداخلية. والعلماء الوثنيين أكثر اشتغالاً بالتنديد على المذهب الجديد ومن ردّ اوريجين على اعتراضات أحدهم قلسوس نعلم بأنهم لم ينفوا صحة الحديث الانجيلي ولا المعجزات المنسوبة ليسوع لكنهم يعتبرونها من نوع السحر و ينكرون

قَدامة التوراة زاعمين بأنها منقولة عن مذهب المصريين القديم بالتوحيد ويحتجون بأن علماء اليهود لا يرون بالنبوات ما يشير إلى مجيء المسيح بذالك الزمان ويدّعون بأن المذهب المسيحي يثبط الهمم عن الاشتغال بالعلوم وغفرانه للخطاة مما يغريهم على المعاصي

(٤٤) فلذالك نرى بأن رد اوريجين على هذا التقريع ينحصر بتأويله للنبوات وباستشهاده بسمو آداب المسيحيين وتمسكهم بهذا الدين رغمًا عما أصابهم من الاضطهاد والعذاب ، وباستناده على النبوات يبرهن على أن الاختلاف بين اليهود والمسيحيين انما هو على تأويلها فقط بينما قلسوس يعترض على قصص التوراة برمته وخبر خلقة آدم فيها على صورة إله لا صورة له فلولا ان مجمع نيقيا فيما بعد يضلل ويكفر من خالف تأويله من اليهود لما آل الجدال بين أهل الكتاب إلى التلاعن والعدوان

(٤٥) ومن الحيل المصرية المنكرة كان تلفيق الكتب لأغراض الدين كالنشيد السيبلّيني الذي هو خلاف النشيد الوثني قبله من هذا الاسم والقليمنتينا أو اقرار قلامنس أسقف روما وكلاهما تزوير محض من عمل يهودي متنصر ولا شك لأنه ينكر الوهيـة يسوع التي كان متمسكاً بها قلامنس رومانوس كل التمسّك

الفصل الخامس

سنة ١٨١ م الى ٢٤٩

قومودوس . پرتينكس . نيجر . سويروس . قارقَلاَّ . مقرينوس
الاجابَلوس . اسكندر . مقسيمينوس . بلبينوس
آل غورديان . فيليب

قومودوس سنة ١٨١ م الى ١٩٤

(١) ابتدأ قومودوس حكمه بقتله أولاد قاسيوس الذين كان أبوه قد اكتفى بابعادهم وحَلَقَ رأسه إلاّ دائرةً بالوسط اقتداءً بكهنة مصر ليجوز له أن يحمل عصا أنوبيس بالاحتفالات الدينية

(٢) وبزمانه كان الصعيد قد أمسى قليل السكان فقيراً لضعف التجارة مع البحر الاحمر بطريق اسوان وخراب بلاد النوبه

(٣) لا بل ان تجارة الاسكندرية نفسها كانت قد خفّت عن قبل من جراء مزاحمة مدينة قانوبوس على الضفة الغربيـة من النيل بالقرب من ابو قير لسهولة مدخلها للمراكب الصغيرة وخلوّه من صخور

مدخل الاسكندرية فصار مصب النيل هناك يعرف بالمصب القانوبي وهي المدينــة التي انتقل اليها عدد من الكهنة قبل انتشار المسيحية والفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية وفيها كرّس قومودوس هيكلاً اسيرابيس وفيها كانت تصنع الجرار القانوبيــة لحفظ أجزآء الجسد التي لا تصلح للتحنيط، رؤوسها من أربعــة أشكال، شكل برأس بومه وشكل برأس كلب وشكل برأس أسد وشكل برأس انسان

(٤) ويُرى اسم قومودوش بالكتابة الكهنوتية على معبد مدينــة قونترالاتو بوليس أيضًا وهو معبد قديم من بنآء البطالســة وربما انه لم يكن آخر امبراطور نُقش اسمه على معابد مصر القديمة إلاَّ ان المعابد التي من بنآء الاغريق قد انمحى أثرها ومعابد الصعيد التي عليها المعول بتاريخ مصر لم يتجدد شيء منها نظراً لفقر الكهنة أولاً، وثانيًا لظهور ضعف بيقين الجمهور القديم حتى أن القضاة أصبحوا لا يقيمون حكماً للعقائد المصرية، وعدا ذلك لانتشار المسيحية مع ما فيها من اليقين بالبعث ويوم الحساب المطابق للدين القديم

(٥) أما الكهنة فكانوا لا يزالون يفتخرون بعلومهم ويحافظون على تقاليدهم وشرائعهم فكان كلٌّ منهم يحفظ عن ظهر قلبه الكتاب المختص بوظيفته من وصايا الإله طوط وهو مركور اليونان وعطارد العرب وبتطوافاتهم الاحتفالية كان المنشد بينهم يتقدم الكل حاملاً

آلات الموسيقى ويليه المنجم حاملاً ساعة الرمل وغصن النخل المرموز به عن السنة وبعده يأتي المنشي حاملاً طوماراً وشا كلاً دواةً ثم الحاجب حاملاً عصا التسريعة واناآء الضحية وأخيراً يكون الكاهن رئيس المعبد وكليم الآلهة فهؤلاء الاربعة أصناف من الكهنة كانوا يحفظون عن ظهر قلبهم ستة وثلاثين كتاباً من هذه القوانين وكان صنف خامس منهم أطبآء يسمونهم بستوفوري يحفظون ستة من الكتب الباقية ومن وظائفهم حمل الصنم بهذا الطواف . ومجموع هذه الكتب كان عندهم كالتوراة عند اليهود والانجيل عند المسيحيين

(٦) ولكننا رغماً عن ذلك نراهم بهذا الزمان قد أصبحوا يلتمسون عذراً لعبادتهم الأصنام والبهائم بأنها بظاهرها الحسي أكثر تأثيراً على عقول العامة وأما الباطن منها فسرّه في صدور العلمآء وهو أن الالوهية لخالق غير منظور وغير محسوس وهذا عين ما نقله عنهم افلاطون بعد ما اتى هليوبوليس لدرس علومهم وما هيّأ الافكار لقبول المذهب الناصري أولاً ثم إلى مسخه مصرياً

(٧) وكان بالاسكندرية معبد مشاد من اربعمائة سنة أي في عهد فيلادلفوس مكرّساً لقيريس وبروزربين الإلهتين الخرافيتين كدير للعذارى الطاهرات اللواتي كنّ بالأعياد يطفن شوارع المدينة حاملات سلّة مقدّسة فشاع بهذا الزمان أن ما يحملنه ضمن السلة لم

يكن إلاَّ الحية علَّة الخطية الأولى والموت وإن طهارتهن غير صحيحة فسقط اعتبار هذا الدير

(٨) فبانحلال عرى الدين القديم على هذا المنوال لم يبقَ للناس ما يجمع كلمتهم أو من إله يستجيب أدعيتهم فلما سمعوا بالانجيل ومعناه «البشرى» بادروا اليه وترجموا منه أحد الأناجيل الأربعة بصورة لم تكن اليونان تعتبرها ولم تصل الينا لنحكم بها لأنها ضاعت بعد انتشار ترجمة الكتاب برمته للغة القبطية

(٩) ومن هذا الحين ابتدأ الانقسام والخلاف بين المسيحيين وذلك لأن أمزجة القبط أهل الصعيد نسل عبَّاد ثيبه الورعين كانت غير أمزجة الاغريق المرَحى نسل عباد فيريس وبروزر بين أو برسوفين فاولئك تعبدوا وتقشفوا ونسكوا وقالوا حاشا للمسيح أن يُصاب بل شُبّه ذلك للناظرين وأن الله رفعه اليه سالمًا حياً وأولآء رأوا بالدين الجديد ما يشحذ قريحتهم على الفلسفة فقالوا بخلاف ما قاله القبط وعُدَّ هذا الاختلاف بينهم كفراً من الطرفين

(١٠) ومن ترجمة الإنجيل للغة القبطية كان ابتدآء استعمال الحروف اليونانية فيها فصارت ~~من~~ كتبته من الشمال لليمين خلافاً لباقي لغات المشرق إلاَّ أن القبط زادوا على الحروف اليونانية ست صور من لغتهم فصارت كلها ثلاثين حرفاً وتلك الصور التي لم يكن لها مخارج يونانية هي ϣ ϥ ϧ ϩ ϫ ϭ أي ش ف ك ح خ ص ومن ذلك

الوقت لم يعد استعمال للكتابة الكهنوتية سوى بالمعابد الوثنية

(١١) وبهذا الزمان كان الفيلسوف المسيحي بنطانوس الأثيني الذي حذى حذو اثيناغوروس وأسس مدرسة الفقه المسيحي بالاسكندرية التي خرج منها بعده بهذا القرن مشاهير العلماء المسيحيين . إنما إذ تكاثر عدد المتنصرين بأواخر القرن التالي وجمع أخلاط الناس صار العلم بنظر هذا الجمهور كالكفر والزندقة ، والجهالة جلباب المؤمنين وكان بنطانوس أول مبشر بالحبشة بالمسيح ويقال بأنه أحضر معه للاسكندرية نسخة عبرية من انجيل الحواري متّى عثر عليها عند أحد اليهود المتنصرين الذين عرفهم بأسفاره لكنها لا أثر لها الان فالموجود من ترجمتها اليونانية لا سبيل للانتقاد على صحته

(١٢) ومن معاصري هذا الاستاذ كان العالم اقليمنس الاسكندري وقد خلفه برئاسة المدرسة المذكورة وربما انه كان أول من فسّر الكتابة الكهنوتية بالكلام اليوناني بوجه يقرب من الاكتشافات الحديثة . وله تآليف كثيرة لا يأنف فيها من الاستشهاد بأقوال افلاطون وهذا الصنف من العلماء هو ما تسميه الافرنج اقلقتيق والعرب التصوف إذ إن الاعتبار فيه إلى حسن السلوك وصفاء الجنان وحصر الجدال بالأعمال لا الأقوال لأن العمل هو نتيجة العقل والجوهر أما القول فنتيجة الحسّ والعرَض

برتينكس سنة ١٩٤ م ونيجر سنة ١٩٤ م الى ١٩٦

(١٣) وقُتل قومودوس فخَلفه برتينكس على كرسي روما ولا أثر له في مصر إلاّ بالنقود لأنه لم يعش سوى ثلاثة أشهر

(١٤) وكان قومودوس قد استعمل قائداً يدعى بشينيوس نيجر أي الأسود المحافظة على الصعيد من تعدي العربان الذين كانوا يسمونهم شرقيين (١) وكان هذا الرجل عاقلاً حازمًا ساهراً على القيام بوظيفته يشارك أنفاره بأعمالهم الزراعية ويمنعهم من شرب المسكرات حتى انه لما حامية اسوان سألته يومًا أن يمدّها بشيء من الخمر أجابها بأن ماء النيل يكفيها وكذلك لما كانت موقعة مع العربان انهزمت فيها جنوده وشكت من عدم وجود الخمر عندها قال لها مَهْ فان العرب لم يكن لهم خمر أيضًا

(١٥) فلما مات برتينكس كان الاسود واليًا على سورية فرفض مبايعة سبتيموس سويروس وأعلن نفسه امبراطوراً وبايعته جنود مصر فحشد جنوده ومشى بها لمحاربة خصمه سويروس في بانونيا من بلاد النمسا الحديثة فالتقى الجيشان في ميزيا على الساحل الجنوبي من بحر مرمرا وقُتل الاسود في مدينة قيزيقس التي العرب أخربتها سنة ٦٧٥ م ومحت أثرها وهي مدينة قديمة كانت على لسان من بحر مرمرا

(١) سرازن بلغات أوروبا لا تينيته سراقِن

سبتيموس سويروس سنة ١٩٦ م الى ٢١١

(١٦) ولما مات الاسود أتى سويروس زائراً مصر واهرامها ونيله ومعابدها وضحك من عبادة سيرابيس والبهائم فيها ومنح الاسكندرية استقلالها الاداري لأنه لم يعد يحسب للاغريق حساباً يقلقه بعد انكسار شوكتهم وبنى فيها معبداً لإلهة الارض رحيا اليونان واوپسْ الرومان وحمّاماً سماه باسمه

(١٧) وبهذا الزمان هاجر الاستاذ بروقاوس من نوقراتيس لعدم الراحة فيها من تقلب الأحكام قاصداً اثينا حيث أقام مدرسته وكان يأخذ من الطلبة مائة درهم أي نحو أربع ليرات انكليزية من عملتنا الدارجة مرة واحدةً على تعليمه وبانتقال هذا الاستاذ من البلد المذكور مسقط رأس اثينايس ويوليوس بولُّقس أفل نجم العلوم فيها

(١٨) والمؤرخ الوثني اسبارطيانوس يقول بأن سويروس حرّم على الناس مذاهب اليهود والمسيحيين وأما المؤرخ المسيحي عوزيبوس فيقول بأن اضطهاد المسيحيين بالسنة العاشرة من هذا العهد قد كان فظيعاً جداً في كل انحاء المملكة وفيها استشهد بالاسكندرية ليونيدس تاركا سبعة أولاد أكبرهم كان اوريجين الشهير فيما بعد. إذ ان الله سبحانه سخّر له امرأة غنية ربته وعالته فنشأ نابغة زمانه عالماً باللغة العبرية التي لم يكن يوناني يلتفت اليها وتمكن من قراءة

التوراة بلغتها الأصلية وذلك في مدرسة اقليمنس

ومهما كان من الحديثين فاننا نعلم بأن الوثنيين لم يكرهوا اليهود والمسيحيين عن غيرة دينية بل مجرداً عن أمر سياسي كانوا يخافون معه من عصبية اليهود ودعوى المسيحية للمساواة بين الناس

(١٩) فقال حينئذٍ ترتوليان القرطاجني ان الامبراطور يرضى من عبادة المصريين للبهائم و يغضب من عبادتهم لإله غير منظور. ولما أغلقت مدرسة الاسكندرية ظل اوريجين يعظ بالدين سرًّا إلى أن انفرجت الازمة فعُيّن رئيساً للمدرسة بأمر المطران ديميتريوس ثم اختلف معه واستعفى من وظيفته

(٢٠) فخَلَفه بالمدرسة الاستاذ هيراقلاس و بزمانه ابتدأ اقدام الاجانب للاسكندرية لدرس هذا الدين ومن جملتهم كان يوليوس الافريقي آتيًا من فلسطين ليأخذ دينه عن الاسكندرية بدلاً من الجليل وانطاكية وهو الذي وضع تاريخه المسيحي مستنداً فيه على تاريخ مصر لمانيطو وكلاهما مفقود الآن ولولا نقل عوزيبوس عن الافريقي لما عرفنا عنه شيئًا ولا عن مانيطو

(٢١) و برهانًا على فقر مصر بهذا الزمان هو أن النقود التي ضُربت بالاسكندرية بعهد سويروس كانت كلها من النحاس أو مطلية فضةً

قراقلا سنة ٢١١ م الى ٢١٧

(٢٢) ولما مات سويروس خلفه ابناه قراقلاً وجيكا لكن بوصولهما لروما قتل قراقلاً أخاه واستبدّ بالملك وحده وكان قصيراً ضئيلاً وكان اليونان بالاسكندرية قد عرفوا سوء خلقه وبلغه بأنهم قد هجوه فلما كان بانطاكية بعث يخبر أهل الاسكندرية بأنه سيأتي لزيارتهم وليستشير الإله سيرابيس باموره

(٢٣) فاستعد القوم لاستقباله باللياقة والاكرام وهيّأوا الهيا كل لقرابينه وبوصوله للبلد دخلها بين المشاعيل والمصابيح والزينة والأنغام الموسيقية والروائح العطرية والزهور المنثورة وبعد أخذه الراحة قدّم ذبيحته بمعبد سيرابيس وزار ضريح الاسكندر وخلع عليه منطقته الملوكية وزناره المحلّى بالجواهر وخواتمه الثمينة فعجب الناس من خشوعه وتقواه وتعشموا خيراً

(٢٤) وإذ كانت المدينة غاصة بالمتفرجين وزاهيةً بالملاعب والأفراح ليلاً ونهاراً أمر الامبراطور بأن يجمعوا له شبان الاغريق بفسحة في ظاهر البلد ليستعرضهم وينتخب منهم فيلقاً وطنياً لها، فخرجت الوف منهم واصطفت لاستعراضه يحفهم جمهور من أقارب وأصدقاء أتين للفرح معهم بهذا الامتياز فمشى الامبراطور بين الصفوف والجموع تهتف له بالنصر والبقاء بينما جنوده الرومانية تحيط بهؤلاء الشبان

عن بعيد ثم بدأت تتقدم رويداً رويداً إلى أن دنت منهم وأتمّت الحلقة عليهم فانسلّ قراقلاّ من بينهم وباعطائه اشارة للجند صوبوا حرابهم نحوهم وصدموهم صدمة من لا يخشى قَوَدا وأعملوا سيوفهم بهم حتى صبغ الدم وجه الشاطيء وامتلأ قعر البحر من الفارّين وعاد قراقلاّ لانطاكية مشتفياً من اغريق الاسكندرية . ولكونهم عذلوه على قتـله أخيه وضع سيفه الذي قتل به أخاه قرباناً على هيكل سيرابيس وأمر بتسكير مراسح العابهم وقطع عنهم هدية الطعام المعينة لهم من الخراج ومدّ سوراً وسط المدينة يقطعها نصفين لزيادة تحصينها منهم إذ أصبحوا هم الأعداء والقبط الأصدقاء ومن أعضاء مجلس روما يدين الامبراطور بدينهم ويشيد معبداً لإلهتهم ايزيس في وسط روما

مقرينوس سنة ٢١٧ م الى ٢١٨
والاجابلوس سنة ٢١٨ م الى ٢٢٢

(٢٥) ثم إذ كان قراقلاّ زاحفاً ضد الأكراد قتله أحد الجند ، يقال بدسيسة من رئيس جنوده مقرينوس ، فأعان هذا نفسه حينئذ امبراطوراً وطار الخبر لمصر فضربت نقودها باسمه ولكنهُ بعد شهرين انتقض عليه الجند وقتله ، ويقال بأن صاعقة هبطت عند

موت قراقلاّ على هيكل سيرابيس ولم تضرَّ منه شيئًا سوى سيف قراقلا الذي كان هناك فاذابته

(٢٦) ولما مات مقرينوس بايعت جنود سورية باسيانوس بن قراقلاّ وأخذت له بيعة مصر وأخذ هو لقب الاجابلوس أي كاهن معبد إله الشمس الفينيقي الأجبل وحكم في روما إلى أن انتقض عليه الجند وقتله سنة ٢٢٢ وفي مدته أفرغت أنابر روما من خراج مصر المخزَّن فيها وتعطَّل ما كان يراد من اقتصاد سلفه

اسكندر سنة ٢٢٢ م الى ٢٣٥

(٢٧) ولما مات الاجابلوس غير مأسوف عليه، خلفه اسكندر سويروس وكان شابًا لطيفًا حليماً فاستهان به اليونان ولقبوه بالسوري والكاهن والحاخام

(٢٨) وبهذا الزمان اشتهر الاستاذ الافلاطوني عمونيوس سقّاس بغزارة علمه وعقله وصار تعليمه يُعرف بالافلاطونية الجديدة لكنه لم يترك لنا من كلامه شيئًا نحكم به سوى شهادة تلامذته بلوتينوس وحيرينوس واوريجين الافلاطوني ولونجينوس الذين أخذوا عنه أجمل الصفات . ومن مدارسهم خرج فيما بعد اولئك اليهود الافلاطينيون الذين كادوا أن يدعوا مسيحيين لولا ان مجمع نيقيا يلعن اليهود وينفّرهم من الانتساب لهذا المذهب

(٢٩) وأفضل علماء هذا الوقت كان اوريجين المسيحي السالف الذكر لكن لانكاره العذاب المؤبد والصلوة ليسوع أغضب أسقفه وتخلّى عن رئاسة المدرسة لتاميذه هيراقلاس وهاجر للقيصرية سنة ٢٣١ ومنها انتقل إلى صور حيث أكرمه السوريون وكان يدحض مذهب مرقيون الذي اختلط بالقرن السادس بالمذهب المانوي وهو أن إله الخير نور وإله الشر ظلام وفيه يقول المتنبي ماجنًا :

وكم لظلام الليل عندي من يدٍ تخبّر أن المانوية تكذبُ

(٣٠) وبعد قليل مات المطران وانتخب هيراقلاس لهذا المنصب وهو لما رأى ثقل الوظيفة من عظم انتشار المسيحية في مصر باشر برسم عشرين أسقفًا جديداً لمدن البلاد فصار هو أكبرهم فلقبوه بالبابا أي الأب الأكبر

(٣١) واشتهر بهذا الزمان أيضًا من علماء الوثنيين هيروديان صاحب تاريخ روما من عهد مارقوس اوريليوس وهو زمان قلّت مؤرخوه . ولوالده ابولونيوس قبله تآليف عديدة بعلم المنطق

غورديان سنة ٢٣٨ م الى ٢٤٣

(٣٢) ومات اسكندر سويروس تاركاً ايتاليا عرضةً لمطامع القواد فدام التنازع بينهم لسنة ٢٣٨ حيث استقر الامر لغورديان بيوس حفيد غورديان حاكم قرطاجنه . فنرى نقود الاسكندرية للسنة ٢٣٧ باسم

مقسيمن وباسم ابنـه مقسيموس وباسم اثنين من آل غورديان لسنة ٢٣٨ وباسم مقسيمن ومقسيموس وبلبينوس وبونبيينوس نيوس وغورديان لسنة ٢٣٩

(٣٣) ولأن الفرس رأوا تضعضع المملكة الرومانية بهذا الزمان ابتدأوا بالتسطي على أملاكها الشرقية فزحف غورديان ضدهم موقنا بالنصر حسبما تعوده الرومان من قبل لكنما فاته بأن جنوده كأخصامه كانوا غير اولئك الذين عرفناهم قديمًا ، فلاقى من جنود الفرس والعرب والسوريين أنصارهم المجربين ما لم يكن بالحسبان فانهزم من وجههم ويقال بأن قائد جيشه فيلبّوس قتله . ولم يمض زمان بعد ذلك حتى خرجت مصر وباقي البلاد الشرقية من يد الرومان ليد الفرس وكان الفيلسوف باوتينوس قد ترك مدرسة الاسكندرية ذاهبًا بمعية الجيش الروماني ليدخل بلاد فارس ويكتشف على علومهم لكنه لما رأى قتل الرومان نجى بنفسه إلى إنطاكية بعد مشقة عظيمة ومنها انتقل إلى روما حيث أخذ بتدريس الفلسفة الافلاطونية

فيلبوس سنة ٢٤٣ م الى ٣٤٩

(٣٤) وآل الحكم إلى فيلبوس فضربت الاسكندرية نقودها باسمه وكان أصله عربيًا من بُصره ويذهب البعض إلى أنه كان مسيحيًّا ولما لم تطعه أهل الدانوب أرسل عليهم القائد ديقيوس ، لكن هذا

انتقض عليه سنة ٢٤٩ وأعلن نفسه امبراطوراً فمشى فيلبوس ضده وتلاقيا بالقرب من ويرونا على بعد اثنين وسبعين ميلاً من وينيس فانكسر فيلبوس وانتقض عليه جنده فذبحوه واستقر الملك لخصمه

الفصل السادس

سنة ٢٤٩ م الى ٣٢٣

ديقيوس . غالوس . واليريان . غليانوس (عصيان)
قلوديوس . اوريليان (عصيان) طاقيطوس . پرو بوس
(عصيان) قاروس . ديوقليتيان . (عصيان الكبير)
غاليريوس . ليقينيوس

ديقيوس سنة ٢٤٩ م الى ٢٥١

(١) وكان اضطهاد المسيحيين مستمرًّا لهذا الزمان لا لغيرة دينية بل كما قلنا قبلاً لغرض سياسي وهو الخوف من أن المسيحية بدعواها إلى المساواة تنقض سيادة الرومان والاغريق على الشرقيين فكانت بنظرهم مزعزعةً للأحكام ومحركة للعصيان كالكومونيسم بهذا الزمان

(٢) فلما تواترت السعايات بهم لحاكم الاسكندرية اميليانوس بحجة إفسادهم أخلاق المصريين أخذ باضطهادهم فهرب منهم كثيرون للصحراء وطور سيناء حيث صاروا غنيمة باردة للعربان ولكن

أكثرهم أنكروا دينهم ايتخلصوا من العذاب وكان من جملة الفارّين ديونيسيوس أسقف الاسكندرية . ثم ان اميليانوس مات فعاد الأسقف لكرسيه ولما ذاك الجمهور الذي أخفى دينه أراد الرجوع للكنيسة وقبل الأسقف توبتهم ، اعترض عليه بعض المسيحيين البعيدين عن الاسكندرية وجورحا كمها وشكوه لأسقف روما فحشد هذا أساقفة الملّة ليفتوا بالخلاف فحكموا لديونيسيوس مصوّبين رأيهُ

(٣) وكان ديونيسيوس خلفًا لهيراقلاس برئاسة المدرسة أولاً ثم بالاسقفية ومن كتبه العديدة نفهم مذهبه بالتثليث ردًّا على من ذهب إلى أن الأقانيم هي ثمانية ومن قال انها ثلاثون وعلى مذهب بولس أسقف ساموسطا على الفرات بأن الكلمة والروح القدس هما صفتان لفعل صادر من الأزلي لا اقنومان مميزان عنه . ومذهب سابيليوس أسقف بطلمايس بالقرب من القيروان بأن الإله واحد أحد وهو نفسه الظاهر بصورة يسوع .

واليريان سنة ٢٥٣ م الى ٢٦٠

(٤) وخلَف ديقيوسَ غالوسُ وهذا خلَفه اميليوس اميليانوس . ثم انتقل الملك إلى واليريان سنة ٢٥٣ لكنّ تمادي هذه الانقلابات السياسية من عهد سويروس للآن معما نتج منها من القلق والاضطهاد لم

يكن ليترك غير تأثير سيء على حالة مصر الاقتصادية فاننا نرى حركة تجارتها وصناعتها قد توقفت وعمالها افتقرت وجاعت واجتحف الوباء نصف سكانها

(٥) وكان القسم الشرقي من مملكة الرمان متروكاً بالسنين الاخيرة لعهدة اوديناطوس السوري ملك تدمر الذي بحكمته وحسن تدبيره رفع شطره بمدة قصيرة لدرجة الممالك العظمى ووقى البلاد من تعدي الفرس ، فلما آل الحكم إلى غليانوس بن واليريان وكان منهمكاً بلذاته وشهواته لم يرَ بدًّا من اتخاذ اوديناطوس شريكاً له في الملك

(٦) لا سيما وان الخبر بموت واليريان على يد سابور ملك الفرس كان قد زعزع أركان المملكة وصارت كل ولاية تبايع حاكمها . فجنود سورية بايعت قائدها مقريانوس امبراطوراً على المشرق وتبعتها جنود مصر ، وكان شيخاً كبير السن فأشرك ابنيه مقريانوس الأصغر وقيتيوس معه بالملك. وضربت الاسكندرية نقودها باسمائهم مدة سنتين من الزمان لكنهم قتلوا ثلاثتهم لما أتى دوميتيانوس قائداً جيوش اوريليوس امبراطور البلقان وطرق سورية بمساعدة جيوش اوديناطوس

غليانوس سنة ٢٦٠ م الى ٢٦٨

(٧) وعند موت واليريان خَلَفَه ابنه غليانوس على كرسي روما. وكان

حينئذٍ حاكم الاسكندرية اميليانوس، فيومًا ما ضربت الجنود خادمًا له يونانيًا لأنه قال لهم بأن حذآءه أحسن من أحذيتهم فتجمهر الاغريق حوالى قصره يشتكون من تعدي الجند ورشقوا نوافذه بالحجارة لكنه لم يعبأ بهم بل استدعى الجند لكفهم فشمت الجند بالاغريق وصاح باسم الحاكم امبراطوراً

(٨) وبايعته بقية جنود مصر فأعلن نفسه امبراطوراً باسم اسكندر وأظهر حزمًا فائقًا بسياسة البلاد وأراح ثيبه من تسطي العربان وقطع الخراج عن روما لكن بعد قليل حضر القائد تيودوتوس بجنود غليانوس وحاصره بالبروخيوم إلى أن ظفر به فأماته خنقًا

(٩) وكان هذا الحصار طويلاً بذل باثنائه رؤسآء المسيحيين وسعهم لتخفيف بلايا الحرب فعلى طلبهم أذن تيودوتوس لغير المحاربين بالخروج من البروخيوم وكان أحدهم عوزيبيوس الذي صار فيما بعد أسقفا على انطاكية، يتجول بالخنادق لاغاثة الجرحى، وأحدهم أناطوليوس يسعى داخل الحصن بالصلح حقنًا للدمآء

(١٠) وكان والبريان قد أظهر أولاً رفقه بالمسيحيين إلى أن لوته حماقة الاغريق عن عزمه فعاد إلى اضطهادهم، أما غليانوس فانه لشعوره بضعف المملكة حينئذٍ ونظره كثرة المسيحيين والاعتبار الذي لهم بالبلاد رأى الترفق بهم أولى فأكرم أساقفتهم كرؤسآء دينيين

محترمين من الدولة فتحسنت إذ ذاك حالة المسيحيين لدرجة لم تعهد من قبل

(١١) وعاد الأسقف ديونيسيوس لكرسيه فرأى الاسكندرية كالرجمة من أثر الحصار والطرقات مملوءة من جثث ضحايا الجوع والوبآء رغماً عن اهتمام المسيحيين بدفن الموتى وعيادة المصابين غير مبالين بالعدوى التي ذهبت بكثيرين منهم ضحية مروءتهم وتقواهم

(١٢) ولقصر مدة مقرينوس واميليانوس واضطراب الاسكندرية لم تضرب بها نقود باسم أحد منهما بل ظلت باسم غليانوس كشريك والده أولاً ثم كامبراطور واوديناطوس شريكاً له

(١٣) وباثنآء هذه الحوادث تقهقرت مدارس الاسكندرية من مسيحية وغيرها علماً وعملاً ما عدا مدرسة أناطوليوس المذكور بحصار البروخيوم الذي كان يميل إلى فلسفة اريسطو وله كتابات في الرياضيات وميعاد الفصح وصار فيما بعد أسقفاً على انطاكية بعد عوزيبيوس فانها كانت محط هذه الفلسفة بينما عمونيوس الوثني كان يفضل فلسفة افلاطون (١)

(١٤) وبهذا الوقت كتب نيقوس أحد أساقفة مصر ردّه على قول الزاعمين بأن لقصص التوراة رموزاً روحانية واستشهد بكتاب الوحي

(١) والفرق بينهما ان اربسطو كان دهريًّا وافلاطون الهيًّا

فأجابهُ رئيس الأساقفة ديونيسيوس بأن كتاب الوحي المنسوب إلى الحواري يوحنا ليس له فلا يُستشهد به، على ان كثيرين يعزونه الى قيرنطوس الغنوسطيقي [١] لما فيه من المشابهة لأقواله وتُوفي ديونيسيوس سنة ٢٦٥ ولكبر سنه لم يحضر مجمع انطاكية الذي حكم على بولس من ساموسطه بالكفر

(١٥) ومن علماء هذا الزمان الوثنيين كان الاستاذ بورفيري الافلاطوني تلميذ بلوتينوس وخلّف عمونيوس له تاريخ مفيد جداً عن زمان البطالسة، وغيره بالفلسفة المصرية وكتب طوط ونفاستها وكتاب في الطريق المؤدي للسعادة الحقيقية

(١٦) ولمّا كان اودناطوس بقيد الحيوة كانت هيبتــه ساطيةً على الفرس أعداء الرومان لكنه إذ قتل غيلة مع ابنه هيرودوس سنة ٢٦٦ واستلمت أرملته زينوبيا زمام الملك فقدت المملكة حسن تدبيره ورأيه فلم تستقم الامور بين الملكة وغليانوس ولما أرسل جنوده ضدها هزمتهم، وإذ مات هو سنة ٢٦٨ زحفت على مصر مدعيةً انها من نسل قلاوفطرا وان البلاد إرث لها ولولديها هيرينوس وتيمولاوس

(١٧) فكان أمير جيشها زبده وانضم اليه القائد المصري تيموجين

---

(١) غنوسطيقي هو ما نسميه « العارف بالله » وضــده اغنوسطيقي أي الكافر

ومعهما من العرب والسوريين سبعون الفًا فلاقاهم القائد الروماني بروباتوس بخمسين الف وهزمهم لكنه باثناء القتـال رأى بعض جنوده ترتد فظن بأنها تهرب من العدو ولعظم تأثره من جبانتها قتل نفسه

قلوديوس سنة ٢٦٨ م الى ٢٧٠

(١٨) فانقادت مصر حينئـذٍ لرأي روما وبايعت قلوديوس وضربت الاسكندرية نقودها باسمه

زينوبيا سنة ٢٧٠

(١٩) ومات قلوديوس سـنة ٢٧٠ وخلفه أخوه قنطيلوس لكنّ هذا مات أيضًا بعد سبعة عشر يومًا فاغتنمت زينوبيا هذه الفرصـة وزحفت ثانية على مصر وامتلكتها فضربت الاسكندرية النقود باسمها وازدانت تدمر بسَلَب مصر ولم تزل تُرى فيها ثمانية أساطين من رخام مصر السمَّاقي طول كل منها ثلاثون قدمًا كانت قديمًا قائمة امام بابي معبدها الكبير

(٢٠) وكانت زينوبيا امرأةً جميـلة المنظر سمراء عيناَء قنواَء الانف لها صوت كصوت الرجال نقية العرض لا كنسيبتها قلاوفطرا وكانت تتكلم بلغة الرومان ولغة الاغريق التي كانت لغة دولتها الرسمية ولغة

القبط عدا لغتها السريانية، وكانت بمعيشتها و بلاطها تجمع بين عظمة ملوك الفرس واقتصاد البداوة . فمثلها امرأة ومثل حزمها جعل الناس بذاك الزمان أن يعجبوا من رجل كغليانوس ضعيف العزم وامرأة تسوس نصف المملكة بعزم وحزم الأبطال

(٢١) وجعلت زينوبيا انطاكية و بالميرا عاصمتي مملكتها ، احداهما لمقام الصيف والأخرى لمقام الشتاء وتركت مصر ولاية تابعة لمملكتها وكان دينها كلغتها سوريا صابئًا ، فان اسم زوجها معناه بغية الالاهة ادونيط واسم ابنها وبعلاطوس معناه بغية الإله بعل ، و بما أن الكثير من جيشها كان من العرب افتخرت بانتصارهم عربانُ الصعيد وأصبحت أصعب انقياداً للاغريق وأعلى أنفًا

اوريليان سنة ٢٧٠ م الى ٢٧٥

(٢٢) لكن بجلوس اوريليان على كرسي روما نراه أولاً راضيًا أن تكون زينوبيا شريكةً له بالملك فضربت الاسكندرية نقودها بصورته من جهة وصورتها من الجهة الأخرى لكنه ما لبث قليلاً حتى اختلف معها فحاربها بحمص وأسرها وحملها إلى روما مكرماً مثواها إلى أن ماتت بعد أن كانت الملكة أربع سنين في تدمر وبضع أشهر في مصر

(٢٣) وترك اوريليان مصر لحكم ابنها وبعلاطوس وضربت

الاسكندرية نقودها بتلك السنة بصورة اوريليان من جهة لأول سنة من جلوسه وصورة وبعلاطوس من الجهة الأخرى للسنة الرابعة من ملكه كانه يعد سني ملكه من موت أبيه . أما اسمه عند اليونان فهو أثينودوروس والتاريخ لا يذكر لنا قبل الآن ولداً بهذا الاسم لاودنياطوس

(٢٤) ولما كانت سنة ٢٧١ استبد وبعلاطوس بالملك وأسقط اسم اوريليان من نقود مصر وأخذ لقب اغسطوس فكان ذلك سبباً لسقوطه وموته وبه انقرض نسل زينوبيا بالمشرق

(٢٥) وعادت مصر لحكم اوريليان لكنها لما كانت قد اعتادت على العصيان لم ترضخ لسلطته طويلاً لا سيما وأن اليونان كانوا قد قلّوا وذلّوا والمصريين والعرب قد زادوا وعزّوا بانتصار زينوبيا فأنفوا أن يحكمهم غريب عنهم فبايعوا رجلاً من سلفكيه يُسمّى فرموس على الأمارة وهو اتكالاً على قوم كان قد مضى عليهم ستمائة سنة بالعبودية والهوان طمع أن ينال بهم سلطنة الاسكندرية

(٢٦) وكان فرموس رجلاً قوي الجأش هماماً عظيم الثروة من وراء تجارة واسعة مع الهند وصناعة الورق ، وداره في سلفكيه من أجمل دور ذلك الزمان مزينة كوّاتها بالزجاج الملوّن المحكم التركيب بالحُمر إلاّ أنه كان فظاً جافياً غليظاً وكانت قوته بعربان الصعيد والبدو أنصار زينوبيا فجعل عاصمته قبطوس ولما جاء أوريليان يحاربه خاض

المعمعة مع رجاله لكنه أخذ أسيراً وتفرقت جنوده فأمر اوريليان بتعذيبه وقتله ، ولأن روما كانت بوجل لئلاّ يفوتها خراج مصر من الحبوب بعث لها اوريليان بشائر انتصاره بسرعة اتطمأن

(٢٧) ويظهر من تاريخ الرومان بأن اوريليان قتل قائداً فى مصر يسمّى دوميتيانوس أما وجود البعض من نقود الاسكندرية باسم دوميتيانوس للسنة الثالثة من ملكه فلا علم لنا من هو إلاّ أن يكون رجلاً آخر بهذا الاسم لا سيما وان كتابة هذه النقود هي بالحرف اللاتيني الذي لم يكن دارجاً بالاسكندرية بذاك الزمان ، والنقود التي باسم اوريليان ترى غير منقطعة سنةً بعد سنة من موت قلوديوس لسنة ٢٧٥ وكلها من النحاس تبرهن عن افتقار البلاد التي كانت روما لا تنفكّ عن استنزاف ثروتها

(٢٨) وأقام اوريليان القائد پروبوس حاكماً على مصر وكان رجلاً حازماً هابه الافريقيون بالقيروان والعرب والسوريون بتدمر وبأوان السلم كان يشغل جنوده بترميم الترع والقناطر والمعابد . وفي مدة ولايته زاد اوريليان نصف السدس بخراج الحبوب عدا عما زاده بخراج الزجاج والقرطاس والكتان حتى انه اضطرّ لزيادة المراكب لنقلها الى روما

(٢٩) أما المسيحيون فكانوا بهذا الزمان بأتم الراحة والطمأن حتى ان البطرك نيرو تجاسر على بناء كنيسة بالاسكندرية باسم القديسة

مريم وربما انها كانت أول كنيسة رسمية بُنيت في مصر وكانت الصلوة فيها كما في سائر البلاد لذاك الحين باللغة اليونانية إلى أن افترق القبط عن اليونان وصاروا يصلون بلغتهم

(٣٠) ومات اوريليان ولم يوص فقامت أرملته بادارة المملكة بصورة وقتيــة لأن القانون الروماني عسكري لا يسمح بالملك للنسآء . أما الاسكندرية فانها ضربت حينئذٍ نقودها باسم الامبراطورة سويرينا

بروبوس سنة ٢٧٦ م الى ٢٨٣

(٣١) وفي سنة ٢٧٦ لما انتخبت روما تاسيطوس امبراطوراً ضربت الاسكندرية النقود باسمه على ستة أشهر وكان هذا حد ذكره بها

(٣٢) ومات تاسيطوس وخلفه أخوه فلوريان وبايعته روما، أما مصر فانها كانت تريد حاكمها بروبوس امبراطوراً وهو لا يرضى إلى أن وهو يستعرض الجند في أحد الأيام خطف بعضهم جبة حمراء عن صنم هناك ورماها على ظهر بروبوس فحياه الجنــد بالامبراطورية ثم بثوا دعوته في اسيا الصغرى وسورية وإيتاليا فبايعته جنود هذه البلاد أيضاً وقُتل فلوريان وبعد قليل مشى بروبوس بجيشه لبلاد الغال وجرمانيا لتوطيد السلم

(٣٣) لكنه بعد سنة أو سنتين إذ بلغه تعدي العربان على الصعيد واحتلالهم البطلسية عاصمة أرض ثيبه عاد إلى مصر فردّهم ونكّل بهم

وبابابه إلى روما دخلها بصفة غازٍ برهانًا على أن انتصاره كان أمراً خطيراً

(٣٤) وكان اوريليان قد أقام أيضًا القائد ساطورنينوس محافظًا على الحدود الشرقيـــة محرّمًا عليه دخول أرض مصر لكنّ پروبوس لانهماكه بأطراف المملكة دعاه لولاية مصر وكان رجلاً شريفًا للغاية شهيراً بخدمته للمملكة في اسبانيا والغـــال وافريقية فدخل الاسكندرية بجيش كبير فطاش اليونان من رؤية موكبه وسلّموا عليه امبراطوراً باسم اغسطوس أما هو فأنكر ذلك، ولقطع الاسباب رحل عنهم بجنوده إلى فلسطين لكن إذ بلغه انتشار الخبر ووقوعه تحت الشبهة خاف أن يُغدر بهِ فأعان نفسه امبراطوراً ثم بعد قليل طرقته جنود پروبوس فوقع اسيراً ومات خنقًا خلافًا لقصـــد پروبوس ورغبته

(٣٥) ولما تُوفّي پروبوس ســنة ٢٨٣ قام بالسلطة قاروس وإبناه نوميرانوس وقارينوس وأثرهم الوحيد في مصر كان النقود المضروبة باسمائهم بالاسكندرية وبعض نقود هذا الزمان كان أيضًا باسم فيلق تراجان الثاني المصري الذي كان مقيماً على الدوام بالاسكندرية وكانت له الرخصة بضرب ما يلزمه من النقود لحاجته فكان يضربها صحيحة بينما نقود البلاد كانت كلها مغشوشةً

عصيان وفوضى سـنة ٢٨٣ م الى سنة ٢٨٥

ديوقليتيان سنة ٢٨٥ م الى ٣٠٥

(٣٦) ثم آل الحكم إلى ديوقليتيان سنة ٢٨٥ لكن سنة ٢٨٨ خلع الصعيد طاعته وبايع أخلُّوس امبراطوراً شرقيًا . فبعث ديوقليتيان القائد غاليريوس ضدّه ولما لم يقدر على تطويع العصاة حضر ديوقليتيان بنفسه سنة ٢٩٢ فدوخهم ولحقهم إلى قبطوس وبوسيريس فهدمهما

(٣٧) ولما بلغ حدود مصر الجنوبية رأى انه من العبث دوام التشبث بالسودان ، والخراج منها لا يفي بنفقة جبايته ، فصالح البلاد التي بين الشلال الأول والثاني تاركاً لهم ما كان من أرض النوبه على سبعين ميلاً من اسوان ومتعهداً بامدادهم بمبلغ سنوي ماداموا محافظين مع جيرانهم عربان الصعيد على السلم . ثم أحكم تحصين حدوده الجديدة بالفيليّة ولم يزل أثر سوره بطرف الحقول من حافة النيل الشرقيـة شمالي الشلال ظاهراً للآن

(٣٨) لكن لسبب ضعف العنصر اليوناني بالبلاد بذاك الزمان مع ازدياد حمية المصريين وكرههم للدولة لم تلبث الاسكندرية إلاَّ قليلاً حتى هي أيضًا بايعت أخلُّوس فاضطر ديوقليتيان أن يعود ثانيـة

لمصر وامتنعت عنه الاسكندرية فحاصرها ثمانية أشهر ثم دخلها وقبض على اخلّوس وقتله واحترق قسم كبير من المدينة و بدخوله للاسكندرية سكع فيه فرسه فتفاءل من ذلك وظن أنه يفدي نفسه باستعمال الرحمة فحرّم على جنوده القتل والسلب وأعطى الناس الأمان فشكروه على إحسانه ثم نصبوا له ولفرسه تمثالاً من القُلُز على العمود المعروف بعمود بومبي بساحة معبد سيرابيس وكتبوا على قاعدته ما تقرأه الآن « إلى الامبراطور المعظم راحم الاسكندرية ديوقليتيان المنصور » أما التمثال فلم يبق له أثر الآن

(٣٩) ولما كان تمادي العصيان قد طال ورأى ديوقليتيان بأن نفقات الحرب لم تعجز المصريين ظن بأن لهم سرًّا بتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة فأمر بجمع كتب السحر والكيمياء التي عندهم وأحرقها . انما حقيقة الأمر هي أن اليأس وحده كان السر في هذا الجلد الطويل وهو الذي أدَّى أخيراً ألى خراب البلاد التام من توقف التجارة بالنيل وتعطل التُّرع والزراعة والصناعة لحدّ لم تكن مصر تعرفه من زمان احتلال الفرس لا سيما وانها كانت بالسنين الستين الأخيرة قد عصت على روما ست مرار وقلّ فيها العنصر اليوناني واعتزل ألوف عديدة من القبط رجالًا ونساء بالاديرة من جراء عدم الامن وضيق المعيشة

(٤٠) فلتقوية العنصر اليوناني رأى ديوقليتيان أن يزيد بالاحسان

لفقرائهم من خراج الحبوب فأتت النتيجة بخلاف القصد لأنهم أخلدوا حينئذ إلى البطالة وزادوا تمراً على اليهود والمصريين وتسافهوا على الحكام وكانوا لأدنى سبب يتجمهرون ويثيرون الشغب والفتنة بالمدينة مشهرين سلاحهم بوجوه اليهود والمصريين الذين لم يكن جائز لهم حمل السلاح ولا اقتناؤه

(٤١) ثم انه الغى رخصة ضرب النقود المصرية وأبدلها بالنقود الرومانية فانقضى بذلك عهد تلك النقود التي كانت بنفسها كتاباً مفتوحاً للتاريخ وقد جمعها العالم سويغا بكتابه المسمَّى « نومي اجبتي امبراطوري » أي أسماء امبراطورات مصر

(٤٢) ومن أشنع حوادث هذا الزمان كان اضطهاد ديوقليتيان للمسيحيين ، فانه سنة ٣٠٤ حرَّم على الناس اتباع هذا الدين بسائر المملكة وهَدَم الكنائس وأمر بحرق كتبها ونفي أو قتل من تمسك بهذا الدين، فكثيرون من المسيحيين هاجروا لسورية ولكنَّ العدد الأكبر كان يستحيل عليه أن يهاجر أو أن يقاوم فاستشهد منهم كثيرون إلاَّ أن يكون المؤرخون الكنائسيون قد بالغوا بما نقلوه عن عدد هؤلاء الشهداء

(٤٣) ولكن لا يمكن إلاّ تصديق المؤرخ عوزيبوس الذي يخبرنا عما رآه بعينه من الاعدام بيوم واحد قتلاً وحرقاً حتى كَلَّ الجلادون وذابت قلوب القضاة من الشفقة على هؤلاء المساكين وبينهم كثيرون ،

من أهل العلم والشرف والمال كبطرس أسقف الاسكندرية وكهنته فوستوس ودايوس وعمونيوس والعالم فيلياس أسقف طمويس وحزيقيوس جامع القاموس الرومي وناقل الكتاب السبعيني والاسقفين باخوميوس وتيودوروس ووكيل الخراج فيلوروموس الخطير المنصب النقي العرض

(٤٤) اما بعض المستشهدين كميديسيوس الذي شتم القاضي ورد نصيحته بالجفاء ولطمه على وجهه ففعله هذا بحد ذاته يستوجب القتل في مثل هذه الظروف

(٤٥) وكان الموكّلون بتنفيذ هذا الامر السلطاني الشنيع قوليانوس حاكم مقاطعة ثيبه وهيروقليس حاكم الاسكندرية مؤلف الكتاب المسمى فيلا ليثيس أي محب الحقيقة نعرفه فقط من رد عوزيبوس عليه وفيه يكذّب الحواريين ويزعم بأن المعجزات المنقولة عن ابولونيوس هي أصدق خبراً وأعظم خطراً من المعزوّة ليسوع الناصري

(٤٦) فكان هذا الاضطهاد أشدّ ما عرفه المسيحيون من الرومان ومع ذلك فاننا نراهم سنة ٣٠٥ مهتمين بانتخاب اسقف جديد للاسكندرية وبينهم الكاهن اريوس الذي اشتهر فيما بعد اشتهاراً سيّئاً بالتاريخ الكنائسي

(٤٧) ولما في سنة ٣٠٥ تنازل ديوقليتيان عن كرسي روما ، استولى

غاليريوس على مصر وباقي مملكة المشرق واستولى قسطنطين خلوروس على مملكة اروبا فغاليريوس ترفّق نوعًا ما بالمسيحيين اولا

مقسيمون سنة ٣٠٥ م الى ٣١٢

(٤٨) ويُعرف غاليريوس بمقسيمن ثم انه أعاد الاضطهاد على المسيحيين واتخذ الجواسيس ضدهم فكثرت الوشايات والسعايات واشتبه الجار بالجار وصارت الناس تطلب من الحكام ابعاد كنائس المسيحيين لوراء اسوار المدن . واذ صار علماء الهيئة يؤرخون السنين من عهد ديوقليتيان سمى المسيحيون ذلك العصر عصر الشهداء

(٤٩) واذ كان لا بد من وجود كثيرين من المسيحيين ممن كتموا دينهم وقت الاضطهاد فانهم عند انكشاف الازمة أرادوا الرجوع لكنائسهم فحصل ضدهم ما حصل في عهد ديقيوس وكان من أشد أخصامهم أحد أساقفة الصعيد المسمى ملاتيوس لكنّ باقي الاساقفة والجمهور كانوا على قبول توبتهم وأمّا أصرّ على رأيه كفّروه وطردوه وحزبه من الكنيسة الجامعة

(٥٠) لكنّه لشدة رفضه ظلّ يترقب مسيحيًا يجرحه فسمع بأن اريوس كاهن كنيسة البقاله يعترض على القول بالوهية يسوع فشكاه للاسقف واضطر هذا الى مرافعته فهرب منه الى فلسطين وظل

هناك الى أن دعاه مجمع نيقيا (وهي الآن ازنيق) بالعهد التالي لمتل هذه المرافعة

(٥١) وبهذا الزمان وما كان فيه من انحطاط اليونان مادياً وأدبياً واضطراب البلاد المتوالي شاعت عبادة مترا ، إله الشمس الفارسي ، بالاسكندرية وكان مثاله كشاب ينحر عجلاً وبجانبه كلب وحية وكان معبده المسمى مترايوم بصحراء البلد بمكان قذر . وشاع ايضاً مذهب ماني الفارسي بواسطة تلامذته پاپوس وهرمز وهو ان إله الخير من نور وإله الشر من ظلام

(٥٢) ولهجت الناس كثيراً بمذهب هيرافاس القبطي بأن الاجسام لا تُبعث بل الارواح فقط فحيَّر المسيحيين الذين كانوا يستندون بيقينهم بالبعث على يقين المصريين وتحنيطهم موتاهم من الفي سنة

(٥٣) وبهذا الزمان كان تعويل المسيحيين المصريين على النقل السبعيني المصحَّح من حزيقيوس الاسقف المستشهد بالعهد السالف ولشهرة الاسكندرية العامية كانت الكنائس البعيدة تطلب هذا النقل منها ما عدا القسطنطينية وانطاكية فان اعتمادهما كان على نقل لوقيانوس وفلسطين ايضاً التي كانت تعتمد على نقل اوريجين القديم ولكن فيما بعد صار نقل حزيقيوس الاكثر استعمالاً الاّ انه لتفنن النسّاخ فيه وتعليقهم عليه الحواشي صار التابعون يعتبرونها كالأصل

كما فعل قبلهم اليهود بنقل التوراة فأتت الترجمة اللاتينية منه اكبر من اصلها اليوناني

(٥٤) وبهذا الزمان ايضًا ترجم القبط النص السبعيني للغاتهم المَنَفية والصعيدية والبشمورية حرفًا بحرف من اليوناني لا بل ان كل كلمة من خمس منه كانت يونانية

ليقينوس سنة ٣١٣ م الى ٣٢٢

(٥٥) ولما مات مقسيمن بطرسوس على يد ليقينوس خَلَفَه هذا على مملكة الشرق ودخلت اروبا في حكم قسطنطين بن قسطنطيوس وبالعشر السنين الاولى كان قسطنطين يحاول الغدر بليقينوس الى أن ضاق صدر هذا منه فزحف ضده الى تراسيا بمائة وخمسين الفًا من المشاة وخمسة عشر الفًا من الفرسان وثلاثمائة وخمسين مركبًا لكنه اضطرَّ فيما بعد الى المهادنة وطلب الصلح فلم يرضَ منه قسطنطين الاَّ التسليم ضامنًا له الحيوة فسلَّم له على هذا الشرط. ثم ان قسطنطين غدر به واماته شنقًا فعادت المملكة كلها بيد امبراطور واحد

الفصل السابع

سنة ٣٢٣ م الى ٣٧٨

قسطنطين . ابنه قسطنطيوس . يوليان . بوويان . والنس

قسطنطين سنة ٣٢٣ م الى ٣٣٧

(١) يمتاز حكم هذا الامبراطور عن غيره بالانقلاب العظيم الذي حصل فيه بدين المملكة وهيئتها عند تنصره سنة ٣٢٣ ، فان اضطهاد المسيحيين قد توقّف بالحال واعفيت كهنتهم من كل التكاليف الملكية والعسكرية . أما تنصره فغير معلوم ان كان عن اقتناعٍ أم سياسةٍ ، انما المعلوم هو ان المسيحية لم تصل لكرسي الملك حتى كانت دين الاكابر والاغنياء فيه و بعد أن رأيناها تنمو وتعلو تحت الاهانة والجور من الحكام سنراها الآن وسيلةً للقرب منهم والتزلّف لهم فان كثيرين اعتنقوا الدين الجديد عند تنصّر الملك ولمّا يدخلِ الايمان في قلوبهم واصبحت الاغلبية المصرية منهم تقدر أن تصف الاقلية اليونانية من هذا الدين بالكفر كما سبق للفئة اليونانية عينها مع الفئة اليهودية المتنصرة قبلها

(٢) أما تنصر اليونان بالاسكندرية فانه كان أولاً من نوع الفاسفة وليس عن اقتناع بدور رباني، كما انهم بدخولهم مصر مع الاسكندر تركوا مذهبهم ومعابدهم في نوقراطيس واتبعوا أديان سيرابيس وميترا، ثم صاروا يضحكون منها الى أن شاعت بينهم فاسفة افلاطون التي هيَّأت أفكارهم للمسيحية. وقبل تنصر قسطنطين كانت المسيحية قد عمَّت كل بلاد مصر، وترتيب كنائسها كان قد تم تقريبًا على ما نراه الآن. فلزمان هيراقلاس وديونيسيوس كانت الكهنة تنتخب الاساقفة والشمامسة تنتخب الكهنة فديونيسيوس كان يصدر بلاغاته الاسقفية باسمه واسماء كهنة أبرشيته لكن بعد ذلك تغير هذا الحال الى الاستبداد ولما القى قسطنطين جلبابه على رؤسآء الكنيسة كثير منهم زادوا على امتيازهم الكبريآء والبخل وحب الجاه

(٣) فلعبت بهم الاهوآء النفسانية وابتدأت الانقسامات الكنائسية وانفصمت عرى ذلك الاتحاد الذي كان الاضطهاد يربطهم فيه. فان قسطنطين كان قد آمن اما بالوهية يسوع واما برسالته ولكنه اذ صار يسأل أساقفة الاسكندرية عن مذهبهم بصفة ملك الحب والرحمة وجدهم يتشاحنون ويتلاعنون فيما بينهم على آرائهم فيه بعيدين عن مبادىء ذلك الشارع الوديع الحنون

(٤) ومع وجود مصر زمانًا طويلاً برقّ العبودية لليونان والرومان فانها كانت قدوتهم بالدين اولاً وآخراً وفيها نشأ الانقسام بين

فئة تذهب الى أن يسوع الابن هو من جوهر واحد مع الآب . وفئة تذهب الى انه من جوهر يماثله بينما هذا البحث لم يكن قد خطر بفكر العلماء الاولين ولا بفكر اليهود المتنصرين اولا المؤمنين بأنه المسيح المنتظر . و بينما اليونان يعتقدون به كالحكمة الربانيـة ، والكلمة على مذهب افلاطون . والمصريون الاولون يعدّونه من احدى الآيات الربانية فان اقليمنس رومانوس صديق الحواري بولس يدعوه الكاهن الاعظم والربّان لا سوى . وحينما دعاه الوثنيون المتنصرون إلهًا متجسداً انكر ذلك عليهم اليهود المتنصرون ، وديونيسيوس أسقف الاسكندرية يدعوه بكر الخليقة واوريجين لا يرى أن يُصلَّى له . فالاسكندرية حولت الافكار إلى الجدال بالصفات والتجبر بالآراء والمنازعات إلى حد الطعن والاضطهاد شنشنةٌ عرفناها من اليهود الذين صلبوا المسيح فكأنّه لم يأتِ

(٥) فلما بلغ الامبراطور وجود هذه الحال ولا سيما ما كان بين أسقف الاسكندرية اسكندر والكاهن اريوس ساءه ذلك وطلب من الاسقف أن يكفّ عن مناظرة هذا الكاهن حبًا بالسـلامة لكن لما بلغ الخبر كهنة الاسكندرية هاجوا وماجوا خوفًا من أن يقوى حزب اريوس بذلك وأصروا على طلب مرافعته فاضطرّ الامبراطور لحشر أساقفة المملكة ليحكموا على الخلاف فاجتمع منهم في نيقيا

سنة ٣٢٥ مائتان وخمسون اسقفًا وعدد كبير من كهنة المشرق وأسقف أم اثنان من الافرنج

(٦) وهناك احتدم الجدال وكاد يأول إلى المضاربة والقتال لولا ان رهبة الامبراطور وحامه يضعان حداً للخصام . وامتاز حينئذٍ الشماس اثناسيوس بحرارة مقاومته لآريوس ثم عاد المجلس للوقار وجرى أخذ التصويت لارآء الخصمين فنجم عن تضليل اريوس والحكم بأن يسوع الابن هو إله من جوهر واحد مع الأب وسموا هذا المذهب « الهوموسياني » وقرروا قانون الايمان المعروف الآن بالنيقي وعينوا وقوع الفصح الذي تقيمه اليهود ليلة تمام القمر الربيعي ، بأن جعلوه يقام بالأحد الذي يتلو تمام هذا القمر ولعنوا اليهود وانفضّ المجلس مكتفيا بنفي اريوس غير مدركٍ ما أثاره بصدور المصريين من الخيلاء بانتصار حزبهم مما جعلهم فيما بعد شوكة بجنب الامبراطور ناصرهم على اليونان أصدقاء دولته بالاسكندرية

(٧) وبهذا الزمان كان أسقف الاسكندرية هو الذي يعيّن لاساقفة البلاد حلول الفصح فيجري بلاغه مجرى الامر لمسيحي المسكونة لأن روما كانت قد فقدت كرسي الملك واورشليم سقطت من عزها والقسطنطينية لم تبنى بعد

(٨) ثم بعد زمان قدّم أريوس استرحامًا للامبراطور بالعفو عنه مبرهنًا

بأنه لم يَحُدْ عن قانون ايمان الرسُل فعفى الامبراطور عنه وكتب لاسقف الاسكندرية بلباقة ردّه لكنيسته لكنّ الاسقف كان إذ ذاك عين ذلك الشماس اثناسيوس خصم أريوس الالد بمجمع نيقيا فأبى الامتثال اطلب الامبراطور مدّعيًا بأن قبول هذا الكاهن عضواً بالكنيسة غير جائز دينًا ، فرفض الامبراطور اعتراضه وطلبه للوقوف بين يديه ولما وجده مصرّا على رأيه أبعده الى صور وهناك أقام مجمعًا من الاساقفة سنة ٣٣٥ لمرافعته فحكموا بفساد رأيه واعادة أريوس لوظيفته فظلّ مُبعداً مدّة هذا العهد كلها

(٩) ولكنّ أقل ما يقال عن شناعة الاستبداد من الرؤساء المسيحيين هو أنه بازدياد سلطتهم دخل الكنيسة رجال غير لائقين بها اتخذوها وسيلة للحصول على غايات زمنية وأغراض ذاتية بعيدة عن التقوى والرأفة المسيحية

(١٠) وكان أولا الاسم العام للمسيحيين « النصارى » وذلك لان أولهم كانوا من اليهود قوم الناصري يسوع ، ثم لما شاعت المسيحية بين المصريين وذهبوا مذاهبهم فيها كفّروا أولئك اليهود القائلين بأن يسوع هو المسيح والنبي الاعظم المنتظر ، فاما مجمع نقيا لعن اليهود كره الجمهور الانتساب للنصارى وانحصر هذا الاسم بعد زمان قسطنطين بيهود الحبشة واليمن المتنصرين

(١١) ومن مآثر هذا الزمان كان بناآء القسطنطينية سنة ٣٢٨ وانتقال

كرسي الملك اليها فبانت روما حينئذ بأعين الناس وقاقت الاسكندرية خوفا من تحول رياستها الدينية لعاصمة المملكة واحتفاف علمائها بكرسي الملك لا سيما وانها اضعف العنصر اليوناني فيها كانت قد أمست تدعى من زمان ديوقليتيان المدينة المصرية بعد ان كانت تدعى المدينة اليونانية على حدود مصر وفعلاً هكذا جرى فاننا نرى عند بناء القسطنطينية ان جاذب اليونان لحرّ مصر قد خفّ وانقطعت مادة هذا النسل فيها

(١٢) ونقل قسطنطين احدى مسلات مصر لزينة عاصمته الجديدة وجلب مسلّة أخرى من هايو بوليس للاسكندرية لينقلها للعاصمة ايضاً لكنه تُوفي قبل أن يفعل ونقلها ابنه فيما بعد الى روما . وأخذ قسطنطين مقياس النيل ايضاً من مسجد (معبد) سيرابيس ووضعه باحدى كنائس العاصمة ليُبطل احتفال المصريين الديني بفيضان النيل فتفاءل كهنة مصر الوثنيون من عمله لكن اذ تمَّ الوفاء بتلك السنة صار المسيحيون يحتفلون به كعيد كنائسي . وأحضر الامبراطور من الاسكندرية خمسين نسخة من الانجيل لاستعمال كنائس القسطنطينية محررة على الرق من تصحيح عوزيبوس أسقف القيصرية

(١٣) ولم يبقَ حينئذٍ للعلماء الوثنيين من عضد ، فقل الاقدام على مدارسهم وصار عليبيوس وصديقه يامبليخوس مدرسي فلسفة عمونيوس وبلوتينوس يتجولان بين الاسكندرية وبرغاموس وروما

وكل ما وصل الينا من تأليف أولهما هو كتابه بمبادىء الانغام مرتبة على خمسة عشر رصداً وعلاماتها على سطرين كأن سطراً منها للصوت والآخر للعود يقال بأنها علامات بيثاغورية . وأما ثانيهما فيوجد له للآن عدة تآليف مذهبه فيها يشبه مذهب أفلاطون

(١٤) وأقام الاستاذ سوپاتر بتدريس الفلسفة الافلاطونية بالاسكندرية وكان يدّعي بأنه أفلاطون الثاني ، ولمدة من الزمان كان قسطنطين يودُّه ويكرمه ثم أنكر عليه مذهبه وقتله وعلى قول المؤرخين الوثنيين انه نقم عليه رفضه ان يُبريء ذمته من قتله ابنه

قسطنطيوس سنة ٣٣٨ م الي سنة ٣٦١

(١٥) ولما مات قسطنطين خَلَفَهُ بالملك أولاده الثلاثة مقتسمين المملكة بينهم فجلس قسطنطين الثاني على كرسي القسطنطينية وكونستان أصغرهم على كرسي روما وقسطنطيوس على كرسي انطاكية كعاصمة المشرق ،فزاد بذلك انحطاط مقام الاسكندرية السياسي.ولما أصلحت أنطاكية سفر التكوين بتركها عشر سنين منه تبعتها بذلك الاسكندرية لكنها فيما بقي ظلّت مدة حياة هذا الامبراطور تدّعي الاسبقية بأمور الدين

(١٦) وكان قسطنطيوس على مذهب اريوس بينما أخواه كانا على مذهب اثناسيوس فتجاسر هذا تحت حمايتهما على الرجوع للاسكندرية

لكن لما بعد قليل نشبت الحرب بين هذين الاخوين وقُتل قسطنطين الثاني تنشط قسطنطيوس لدفع مداخلة كونستان في أمور مملكته وعزل اثناسيوس من كرسيه وأقام مجمعًا من الاساقفة بانطاكية لينتخب أسقفًا عوضه فانتخبوا أولاً عوزيبيوس من حمص لكنه استعفى مشعراً بأن المصريين لا يرضون أن يكون عليهم أسقفًا أريوسيًا ولم يكن من رأيه اكراههم على ذلك فانتخب المجمع حينئذ أسقفًا على الاسكندرية غريغوريوس الجسور على أي مقاومة تصدر ضدّه من أهلها

(١٧) ثم انه قرَّر الغاء « إله من إله جوهر واحد مع الاب » وابداله « ببكر المخلوقات وصورة جوهر الاب » وبعد بضع سنين التأم هناك مجمع آخر وسنّ قانونًا أقرب الى مذهب اثناسيوس لكنه لانكاره أيضًا وحدة الجوهر مع الاب رفضه المصريون واللاتين وصار كل فريق يضلل الآخر ويلعنه

(١٨) ولم يجسر غريغوريوس على القدوم لكرسيه حتى أمر الامبراطور القائد سيرانوس بخفارته فأدخله الاسكندرية ليلاً وبالغد أتى به للكنيسة محفوفًا بالجند فوجدوا اثناسيوس قد سبقهم اليها مع أتباعه وأغلق أبوابها ، لكن لما تهددهم القائد خرجوا من باب السرّ حنقين وتبع ذلك اضطراب بالمدينة وشغب وانقطع وارد الخراج عن البلد ايامًا فخاف اثناسيوس من المسؤلية بذلك وهرب الى روما أما

حزبه فلكونه اكثر من الحزب الاريوسي فظل هائجًا حتى انه احرق
الكنيسة مؤثراً ذلك على تركها بيد الاريوسيين ثم انه قوي عليهم
الى أن امكنه طردهم من كل كنائس وأديرة مصر

١) وبعد سبع سنين من هذه الحال مات غريغوريوس وبرجا اسقف
روما وكونستان أعاد قسطنطيوس اثناسيوس الكرسيه مشرطًا عليه
عدم التحرش بالاريوسيين

٢) لكنه برجوعه لابرشيته أظهر الاستبداد . فقسمٌ من حزبه
من القبط لم ترضهم معاملته لمواطنيهم الاريوسيين فانتقضوا عليه
وانفصلوا عن كنيسته منضمين الى كنيسة الاسقف ملاتيوس

٢١) وبهذا الزمان بدأ الحكام يشعرون بالانقلاب الناتج من انتشار
المسيحية أولاً ثم من دخول الامبراطور في دينها واعطائه للاساقفة
رتبة الامراء

٢٢) ثم مات كونستان فعاد قسطنطيوس لعزل اثناسيوس سنة ٣٥٤
لكنه لاقى بذلك تعبًا جمًّا الى أنْ في سنة ٣٥٦ اختفى اثناسيوس
وظلَّ مستتراً عن الحاكم سيرانوس في غرفة صبية اجارته لآخر
هذا العهد

٢٢) فلما أعجز سيرانوس أمره أرسل الامبراطور القائد سباستيانوس
حاكماً على مصر ومأموراً بالقبض على اثناسيوس حيًّا أو ميتًا . فرفع

حينئذٍ حزب أريوس قرنه وانتخب جرجس من قبادوسيا أسقفاً على الاسكندرية

(٢٤) وكان جرجس رجلاً عالماً هماماً لكنه أقل حكمة وسياسية من خصمه وكان أبوه خياطاً من ابيفانيا فى أسيا الصغرى فلما رأى نفسه بهذا المقام الخطير تجبَّر وترنح بسلطته فاضطهد أخصامه بكل أنواع العذاب والقتل والابعاد حتى كاد أن يحاكي عمل ديوقليتيان بالمسيحيين فكرَّه الناس اسم الامبراطور ناصره وحط من شأن الاسم المسيحي بين أعداء هذا الدين

(٢٥) وبهذا الزمان كانت البلاد التي على الطرف الجنوبى من البحر الاحمر قد ابتدأت أن تُعرف اكثر من قبل بالاسكندرية فان الرحّالة ميروبيوس وصل اليها في عهد قسطنطين ودخل اخصُم عاصمة الحبشة وفرومنطيوس رفيقه سعى بارشاد أهلها للمسيحية والمتاجرة مع مصر وعاد اليها أسقفاً بأمر اثناسيوس وقسطنطيوس بعده أرسل بعثاً مع الراهب تيوفيليوس لاهل حمير الصابئين نسل اولئك اليهود المستوطنين البلاد من عهد سليمان فبنى لهم الكنائس ثم انتقل للحبشة عوضاً عن فرومنطيوس الذي عزله جرجس الاسقف الاريوسي فأحكم فيها ربط عرى الوداد مع شعبها اليهودي الاصل أيضاً الذي كانت العربان تحجز بينه وبين مصر . ووجد هنالك بجنوب العاصمة مستعمرة سورية يُقال بأن الاسكندر أسكنها تلك البقعة . وكانت

لغة تلك البلاد كلها عربية غير لغة السودان وبها تُرجم لهم الانجيل من اليوناني لكنّ انتشار الدين الجديد بينهم لم يتمّ لقرنين بعد هذا الزمان لسبب الموانع التي كانت تطرأ من وقت لآخر فتقطع مواصلاتهم مع الاسكندرية

(٢٦) وها انا نرى كلما تقدمنا بتاريخ المسيحية في مصر كلما بعدنا عن أزمنة العلم ودخلنا غياهب الجهل الممتد منها الى أوروبا فان الرهبانية التي نشأت من نسك انطونيوس وتولي المصريين في عهد فيليبوس قيصر على حافة بحيرة لوط لم تكن الا تقايد رهبانية الوثنيين واليهود من قبل ، والمعجزات المنسوبة لبعض الرهبان المسيحيين من بين الالوف من رجال ونسآء في عهد قسطنطين وعهد اولاده ليسها جزءًا مما نقل عن رهبان الوثنيين قبلهم

(٢٧) لا بل ان هؤلآء الرهبان المسيحيين تقلدوا عادة رهبان الوثنيين السالفين بحلق رؤوسهم الا دائرة في وسطها وحلق لحاهم وشواربهم فحرم عليهم ذلك اثناسيوس وحرّم أيضًا عليهم استعمال الرقى والافراط بالصوم للتفاخر به ومكالمة النسآء والاغتسال بالحمامات العمومية وحفظ السبت . وبعد هذا الزمان بسنين قليلة صار وضع قانون الرهبنة المطوّل المعمول بأكثره للآن

(٢٨) ومن الاخبار عن بعض هؤلآء الرهبان خبر أحدهم عمّون الذي يقال بأنه كان رجلاً ذا نعمة اقترن بصبية حسنآء لكنه باليوم

والساعة أغراها بالتزام العفة وهجران العالم ناذراً بالاَّ يغتسل طول حياته ولا يغير ثوبه كي لا يرى جسده عريانا . وعلى قول مؤرخه الكنائسي انه كان اذا اضطر أن يقطع ساقية تأتيه الملائكة فتحمله كيلا يبالّي وفاء بنذره

(٢٩) واشتهر بعده الناساك انطونيوس المقيم في ذاك الوقت بالقرب من هيراقليو بوليس الزاعم بأن روح عمون آتته وعلمته الفرائض الدينية فكان سكنه بين القبور حيث أتاه الشيطان بأشكال شتَّى منها انه أتاه بشكل اسود ونمور وذئاب وحيات وعقارب وزنابير كثيرة واذ انتصب ليصلّي هربت من وجهه توًّا . ومنها انه أتاه بشكل زائر لكنه اذ سمع اسم يسوع ولَّى هاربا . ويزعمون انه كان يشفي المرضى ويخرج الشياطين بعلامة الصليب ويعلم بالغيب وينكر فائدة العلوم لمن اهتدى للدين ، وهكذا لما شاع ذكر فضائله ومعجزاته كتب له الامبراطور كتابا فلم يمكنه أن يرد له الجواب بلغة اليونان لكنه قد خلَّف بعض وصايا للرهبان باللغة القبطية ترجمت فيما بعد لليونانيـــة وبواسطتها عُدَّ من الآباء اللاهوتيين . وبعد أن قضَّى بهذا النسك عشرين سنةً خرج يعظ الناس ضد المذهب الاريوسي

(٣٠) وبالاجمال فان تاريخ الكنيسة بهذه الازمنة يُرى مفعماً بمثل هذه الاخبار ولكل زمان حال تُحار بها الافكار

(٣١) ومن علماء المسيحيين بهذا الزمان كان سيرابيون اسقف طمّس

وصديق انطونيوس ، له كتاب نفيس ضد المذهب المانوي ، انما العالم السني فكان الاعمى ديديموس رئيس المدرسة اللاهوتية الرياضي البليغ المتبحّر في الفلسفة الوثنية واليه كانت تشد رحال الطلبة من كل فجّ وكان مولعًا باثناسيوس وعلى مذهبه حتى قال الاريوسيون بأن كل عالم لذاك الزمان كان على مذهبهم الاّ هذا . وله شرح على الانجيل ومقالة ضد المانوية

(٣٢) وفي كل هذه الجدالات الدينية وثنية كانت أم مسيحية ، نرى روما في غالب الأحيان تابعةً لآراء مصر ، فان كونستان لما أراد أن يهدي بعض نسخ من الكتاب المقدّس طلبها من اثناسيوس . وكانت روما مثل مصر تكره مذهب اليونان الاريوسي وهكذا لما جيروم الروماني زار مصر قال بأنه وجدها على المذهب الحقيقي الرسولي . ولكنه مع اعتراضه على مذهب اوريجين يشهد له بالعلم والفضيلة والتقوى

(٣٣) أما علماء ذاك الزمان الوثنيون فمنهم المنطيقي افتونيوس الذي اكتسب شهرة عظيمة بحكمته وفصاحته وكان يميل الى مذهب ماني فأتاهُ طالب علم يُدعى عطيه ، اريوسي المذهب ثم صار يجادله بالدين الى أن طلبه للجدال بمحضر من الجمهور فتجادلا ولكن قبل

أن تظهر النتيجة اعتلّ الاستاذ ومات فقال الاريوسيون بأن حجّتهم قتلته

(٣٤) وسنة ٣٤٧ تمت الاحدى عشر قرنًا من بناء روما فضربت نقودها بتلك السنة وعليها صورة الطائر الخرافي « فينكس » بصورة نسر بريش أحمر وأصفر وهو المسمّى عند العرب العنقاء وأهل الصين يزعمون بأنه طائر ميمون يظهر بالبلاد عند اكتمال سعدها

(٣٥) ومن كلام يوليوس فرميقوس بالوثنيين يظهر بأنهم كانوا بذاك الزمان قد تركوا عبادة البهائم وغيرها وحصروا عبادتهم بايزيس وعوزيريس والنيل . وكان عيدهم الكبير يوم حزن ايزيس على زوجها عوزيريس الذي قتله تيفون الشقي حسداً فيحلقون فيه رؤوسهم ويطوفون بالمدينة باكين منتحبين يضربون على صدورهم ويقطعون جلودهم ثم يزعمون بأنهم يبحثون عن اشلاء القتيل التي القاها تيفون بالنيل فتريهم اياها ايزيس بمساعدة اختها نفطيس والقناص انوبيس فيدفنونها ثم يعيّدون فرحين . واسم ايزيس باللغة الكهنوتية حيز

(٣٦) وبهذا الزمان اشتهرت ابيدوس[1] الصعيد بمعبدها للإله بيسا العجائبي فقصده الناس من مصريين واغريق يستشيرونه في

---

(١) هى المسماة الآن المدفونة

حظوظهم و يقدمون له الضحايا ومن جملتهم كان أحد ولاة مصر بارناسوس فاما بلغ الامبراطور خبره عزله ونفاه ولكنه لم يتحرش لكهنة المعبد لما كان لهم من السلطة على عقول كثيرين من ذاك الجمهور

(٣٧) وربما انه بهذا الزمان ايضاً ألّف هيفستيون الرياضي الثيبي كتابه الذي يزعم فيه بأن لأبراج الفلك فعلاً يؤثر بأجسام الناس وطبائعهم فأعطى لكل بلاد برجاً لكن بدون اعتبار خط الطول كأنه قسم الأرض كالفلك الى شرق وغرب ثم قسم كل برج الى ثلاثة منازل كلٍّ منها عشر درجات كما هي بالمنطقة المرسومة على سقف معبد دنديره من زمان تيبريوس المؤلّفة من اثنى عشر برجاً فزعم بأن صفة كل انسان تتبع صفة النجم الطالع مع الشمس يوم ولادته. وقد رأيت بزماننا هذا كتاباً اميريكياً يسند هذا الزعم

(٣٨) أما الحكم بهذا الزمان فانه كان قد ضعف لدرجة انه اصبح كالعَدَم، لا يضر ولا ينفع، فاستقلّت فيه اكثر المدن والقرى بالصعيد أو احتمت الصغيرة منها بالكبيرة تحت سيطرة أحد الاساقفة حتى صارت اوامر الامبراطور نفسه لا تعمل فيها

يوليان سنة ٣٦١ م الى ٣٦٣

(٣٩) ولمّا مات قسطنطيوس خَلَفَه يوليان وهو آخر امبراطور وثنيّ فلم

يرضهِ تصرف المسيحيين ضد أخصامهم الوثنيين . واذ أرسل هؤلاء بعثًا للقسطنطينية يتظلّمون من حاكمهم ارتميوس ومن الاسقف جرجس ، طلب الحاكم اليه وبعد محاكمته في خلقيدونيا أمر بقتله فطمع الوثنيون بانتصاره لهم وثاروا ضد المسيحيين بالاسكندرية فقبضوا على الأسقف وداسوه بأرجلهم حتى الموت وقتلوا أيضًا رئيس دار السكة دراقونيتوس لانه كان قد هدم لهم معبدًا بتلك الدار واهلكوا معهُ أحد الاعيان ديودوروس لانه كان قد نكاهم بقص نواصي الشبان المصريين المختصين به بحجّة انها أثر وثني وقد كانت أصلاً عادةً عندهم مختصة بالنسل الملوكي من عهد رمسيس ثم صارت بزمان البطالسة علامةً لشرف النسل ثم أصبحت عمومية . وحملوا جثث الثلاثة على الجمال الى حافة البحيرة فأحرقوها هناك وذروا رمادها بالهوآء حتى لا يتركوا لها أثرًا يرجع اليه المسيحيون ليبنوا فوقه كنيسةً

(٤٠) واذ بلغ الامبراطور خبر جناياتهم أنبّهم عليها وتهددهم بالعقاب لا اكثر ان عادوا لمثلها ثم جعل كل اهتمامه بالاستيلآء على مكتبة الأسقف المقتول متهددًا وكيله بقطع رأسه ان فاته كتاب واحد منها

(٤١) أما حزب اثناسيوس فلم يعبأ بقتل هؤلآء الاريوسيين بينما الامبراطور مع عدم مبالاته بما حلّ بهم كان يكره اثناسيوس

وحزبه أشدّ الكره فلما عاد اثناسيوس للاسكندرية بدون اذنه غضب عليه وأمر بطرده من كل أرض مصر

(٤٢) ولم يتعرض لجمهور المسيحيين أكثر من نظره اليهم بعين الاحتقار وعدم قبولهم بالمدارس السلطانية . فسآء ذلك مسيحي الروم وسورية واسيا الصغرى . أما القبط فانهم كانوا بعد سقوط الاريوسيين لا يهمهم علم أبداً لا بل انهم أمسوا بعد قليل يكرهون العلم والعلمآء ككرههم للشياطين

(٤٣) لكنّ حب الامبراطور للعلم وتشييده مدرسة جديدة بالاسكندرية لفنّ الموسيقى ووضعه لها الجوائز لم يُفدْ الوثنية شيئاً إذ كان الخراب قد عمّ وطمّ بلاد ثيبه مقرّ هذا الدين من جرآء تسطي العربان عليها، والقيروان اصبحت قاعاً صفصفاً . والذل صار مزية للقبط حتى أصبح الفلاَّح يؤثر الجلد على ادآء الخراج واذا تخلَّص من الدفع بشكوى الفاقة هزّ عطفيه مفتخراً بنفاذ حيلته على الدولة . أما الاسكندرية فكانت لم تزل أول مدينـــة بالعلوم ومكتبتها ذات السبعمائة الف كتاب لم تزل اعظم مكتبة بالدنيا كما ان السيرابيوم حاويها كان اعظم بناية على وجه الارض بعد القَبيتول معبد يوبيتر في روما، وهو المشتري وبرجيس العرب

(٤٤) أما السيرابيومُ فكان معبد سيرابيس على التلّ غربي المدينـــة وله مدخلان احدهما للعجلات والآخر للرجْل من مائة درجة كل

درجة أعرض من التي تحتها و باعلاه رواق على اربعة أعمدة وصحن البناء مشكوف تحوطه رواقات على صفين من العمد وفي البعض منها خزانات الكتب وعلى سطحه قبة مذهبة ورؤوس أعمدته محلاة بالصفر والذهب وجدرانه زاهية بالنقوش والصور و في وسط ساحته عمود شاهق يستهدي به الملاحون عن بعد . وكان صنم الإلاهة القائم داخله من عهد البطالسة خشبًا مكسوًّا حلّةً مجوهرةً ، ولقاعته كوّة يقع منها شعاع الشمس على فم الصنم في وقت معيّن عند الصلاة فتوهم الناس بأن هناك سرًّا إلهياً . أما رجلاه فالمظنون بأنهما كانتا من الرخام . ولا يوجد الآن أثر لشيء من هذا البناء سوى عموده المسمّى عمود پُمپي الموازي لفخامة اثار القبط الاقدمين

يوويان سنة ٣٦٣ م الى ٣٦٤

(٤٥) ولما مات يوليان خلفه يوويان وكان مسيحيًا على مذهب المجمع النيقي فأعاد اثناسيوس لكرسيه بالاسكندرية لكنه ترك للاريوسيين أسقفهم لوقيوس غير متعرض لهم

(٤٦) ونعم ان الاختلاف بين المذهبين بظاهر الامر كان دينياً إلاّ ان اكثره كان لاسباب مرجعها النسل واللسان والوطن فكان اليونان اكثر إدعاءً بالفهم يحتقرون مذهب المصريين بالطبيعة الواحدة بيسوع و يقولون بالطبيعتين وكان كل فريق يكفّر الآخر

الى أن بتكاثر عدد القبط المتنصرين تغلبوا على اليونان ولم يمضِ قرن بعد هذا الزمان حتى تحرّروا منهم مادياً وادبياً

والنس سنة ٣٦٤ م الى ٣٧٨

(٤٧) واذ تُوفيّ يوويان خَلَفَه والنتينيان وهذا أعطى أخاه والنس مملكة المشرق وكان اريوسي المذهب فرفع الاريوسيون رؤوسهم بالاسكندرية وأرادوا الاستيلآء على القصر الروماني المسمّى قيصرية ليجعلوه كنيسة فقاومهم الوثنيون سنةً ثم أحرقوه. لكنّ الامبراطور بعد سنة بنى للمسيحيين كنيسة بتلك البقعة عينها

(٤٨) ثم ان اثناسيوس وجد مركزه حرجًا بالاسكندرية فرحل عنها لكن إذ هاجت رعيته أعاده الامبراطور وامّنه فاستراح وأراح إلى أن مات مخلّفًا ذكرًا أشهر من ذكر ملوك زمانه وملقيًا أساس تلك السلطة الكنائسية التي رفعت وحطّت ممالك عديدة في مستقبل الايام واهتز لها الخافقان. اما التآليف التي لنا منه فكلها جدلية بالمذهب واكثرها ضد الاريوسيين. ولكنّ القانون المنسوب اليه فالصحيح بانه ليس منه، لا لأن اللعن الموجود فيه كثير على طبع اتناسيوس بل لأن لا ذكر فيه لوحدة جوهر الاب والابن التي كان أعظم تشبث اثناسيوس بها قبل كل شيء

(٤٩) وعند موته انتخبت رعيته بطرس اسقفاً عوضه فادّعى بأن الكرسي الاسقفية بالمدينة هي حقّه وان لوقيوس الاريوسي مغتصبها فغضب الامبراطور وأمر بالقبض عليه وسجنَهُ وضبط كنائسه وأحالها لأخصامه والغى شريعة قسطنطين التي تعفي الرهبان من الخدمة العسكرية والتكاليف الجمهورية فرفضوا الامتثال لأوامره. لكنهم إذ كانوا على مذهب الطبيعتين تجرّد لوقيوس لاكراههم تنفيذاً لشريعة الملك فصحّ له استخدام الجنود فكبس أديرتهم وقتل وهدم ما استطاع من رجالهم ومنازلهم

(٥٠) وهذا بينما كانت الرهبنة قد شاعت جداً في مصر واستغرقتها الدولة وسمحت لها باستملاك العقارات والاراضي ومنحها والنس حق الارث من الرهبان الذين لم يتركوا وصيّة ولا وارثاً شرعياً. ومن أعظم أديرتها كان دير طبنّا بالصعيد الذي رئيسه باخوميوس كان اولاً ناسكاً بكهف هناك ثم التفّ حوله الوف من العباد ينظرون اليه كنبي، منهم الف وثلثمائة بهذا الدير وستة آلاف بغيره لباسهم الجلود وشغلهم الحرث والصلاة. وطبنّا او بالحري طبنيز يعني مدينة ايزيس، والدير ربما هو المعروف الآن بالدير الابيض بالقرب من عفروديتو بوليس وفيه كنيسة على الهندسة اليونانية وشكل الصليب وأما ظاهره فكمعابد مصر القديمة التي أعارته أحجارها

(٥١) وكان صنف آخر من الرهبان يرأسهم زاهدآخر يدعى عنّوف يزعم بأنه ينال ما شآء بصلاته (١) وغيرهم يرأسهم راهب أميّ اسمه هوز مولع بانشاد الزبور، وآخرون يرأسهم سيرابيون كانوا أهل كدّ وتعب ومواساة للفقرآء حولهم. وكان بالقرب من نطاريّه (التي وجدوا بجوارها البورق فسمّوه نطرون) جهة مريوط خمسون صومعةً بنساكها وأما الأشد زهداً فكانوا يتوغلون بالقفار لحد سطيس مقام أنطونيوس على حافة بحيرة مالحة جدبآء حيث الهوآء كلهيب النار والسمآء كالمهل المرفوع وهناك كان يقيم الناسك موسى التائب من مآثم شبابه الذي يقال بأنه قضى ست سنين لا ينام فيها أبداً وانه اذ طرقه ليلةً ما أربعة لصوص شدهم ببعضهم بحبل ورفعهم على ظهره وسار بهم لدير بالقرب منه ليقاصصوا لأنه كان قد نذر بألاّ يوجع إنساناً بيده. وكان هناك ناسك آخر يدعى بنيامين الذي اشتهر بزيته المقدّس لشفاء الامراض فكانت المرضى تأتيه ليمسحها به حتى لما كان على فراش مرضه بالاستسقاء وكان ناسك آخر يدعى هالاس يحمل النار في جيبه ولا تحرقه (٢) وكان بالصحرآء العربية بالقرب من أنطينو بوليس إيلياس الزاهد أقام فيها سبعين سنةً. وبالقرب من أخوريس كان أبيلّس الحداد الزاهد الذي يقال بأن الشيطان أتاه

(١) أو بالحرى بقصده وهو مذهب والقول فيه كل من جد وصل وكل من قصد حصّل

(٢) كانه اكتشف على المعدن اسبستوس الذي يحاك ولا تؤثر فيه النار وقد عرفه الرومان

بصورة امرأة جميلة المنظر فكوى وجهها بالحديد المحمي . وكان هناك أيضًا الناسك أبولوس متهجداً وقاهراً ذاته مدة أربعين سنة وأخبار عجائبه منقولة لنا من تيموتاوس أسقف الاسكندرية . وكان بالقرب من الاسكندرية الناسك دوريتوس و بواس ناسك فرما الذي كان يعيد صلاته ثلثمائة مرة باليوم ويعدها بحصى يحملها لهذه الغاية وكان من أصدقاء أنطونيوس الذي أهداه جبة كان اثناسيوس أهداها له فلما كان بولس على فراش موته طلب أن يلقوا عليه تلك الجبة ويقال بأنه أول مسيحي تنسك اذ هو ابن ست عشرة في عهد واليريان وزمان الاضطهاد ومات وهو ابن مائة وثلاث عشرة سنة فتكون مدة تنسكه سبعًا وتسعين سنة

(٥٢) فصبر هؤلاء الرهبان والنساك على ضنك المعيشة بالقفر ومثابرتهم سنينًا على التعبد والصلاة جعلهم محلاً للاعجاب والاكرام لأن الناس لايرون إلاَّ ظاهر الاشياء . وإلاَّ فان حاجة الكون الى راهب المعمعة اكثر منها الى راهب الصومعة ، لاسيا وان المصريين قد فرطوا بصفات هؤلاء العبَّاد وغالوا بأخبار عجائبهم واكثرهم كانوا هوموسيين يقولون بالطبيعة الواحدة والجوهر الواحد للآب والابن البعض منهم على مذهب اثناسيوس بالتثليث والبعض يعتقدون بأن يسوع لم يُصلب بل شُبّه للناظرين ورفعه الله اليه حيًّا ، والبعض يعتقدون بأنه صورة الخالق . وكلهم يكفّرون الاريوسيين واغريق

الاسكندرية القائلين بالطبيعتين ولذلك غريغوريوس النازينزي يقول بأن مصر هي محجة الدين المسيحي ومذهب التثليث الصحيح وبغض النظر عن أساليب كثيرين من هؤلآء الرهبان فاننا نجد بينهم من يُشْهد له بالعلم حقيقةً كالراهب مكاريوس المصري من دير نطريّه (وهو غير مكاريوس الاسكندري) صاحب كتاب الكمال المسيحي الذي هو من خيرة الكتب بالفضل والتقوى

(٥٣) وكان كثيرون من أغنيآء المسيحيين الاجانب يقصدون مصر لزيارة أديرتها، فأحدهم المسمَّى روفينوس من جوار المدينة الحديثة تريسته يخبرنا بأنه تجشم مشقة السفر للصعيد مع بعض رفقائه وشاهد هنالك مدينة أوخيرنيقوس وفيها اثنتا عشرة كنيسة وعشرة آلاف راهب وعشرون الف راهبة وبينهم ثيون العالم باللغات اليونانية واللاتينية والقبطية ، وقابَلَ في ضواحي مدينة ليقوبوليس [١] الناسك يوحنا الذي كان القائد الروماني يعتبره ويستشيره بحربه ضد السودان والعربان بتلك الاصقاع . ووجد في دير طبناً ثلاثة آلاف راهب رئيسهم عمون ناذرين الصمت ، وخمسمائة راهب في دير بالقرب من هرموپوليس [٢] رئيسهم أبولونيوس رجل ذكيّ عاقل ، أثوابهم بيضآء نظيفة وقلوبهم مثلها . ويقول أيضاً بأنه وجد الوثنية لم تزل شائعة بجوار هرموبوليس ولها تناوش مع أهل ذلك الدير، وانه زار بصحبة ثلاثة

(١) هي اسيوط الحديثة (٢) هي اشمونين الحديثة

من الرهبان عدة أديرة أخرى بقرًى لا يعرف أسماءها منهـا فوق صخرة على حافة النهر ومنهـا ضمن جدار عال وله بستان فيه أبار وفاكهة. وواجه إيلياس الناسك بالقرب من أنطينو بوليس. وزار ديراً بالقرب من هيراقليو بوليس . ورأى في الجهة الارسينوتية بلاداً كل أهلها رهبان أصحاب كدّ وعمل بالحقول وتجارة مع الاسكندرية ووجد ضواحي منَف وبابل غاصَّة بالرهبان . وزار الاهرام وقيل له بأنها كانت الاهرآء التي خزن فيهـا يوسف غلات سني الخصب. وأخيراً زار دير جبل نطريه الذي كان أشهر أديرة مصر ثم زار بيت المقدس وعاد راجعًا لبلاده حامداً مما شاهده وعرفه

(٥٤) فبديهيًّا ربما أننا نستغرب وجود هذا الجمهور من الرهبان بين سكان مصر، الاَّ أن بالنظر لأحوال ذاك الزمان وما عرفناه من الأسباب الجارية فيها يرتفع باب العجب ويتضح بأن تلك الرهبنة لم تكن أولاّ الاّ ردّ فعل من عظم فساد اخلاق اكثر الناس بتلك الايام ودواءً لداءٍ لا ينفع فيه غير السمّ فان شيطان الطيش والبطر والسفاهة وحب الذات كان قد أخذ بكامل حواس القوم وأصبح غايتهم الوحيدة بالدنيا، فنفر البعض إلى البراري والقفار مبتعدين عن هذه الخساسة والدناءة . ولما أحبوا الفقر أحبهم الفقرآء والفلاحون ووازروهم على أعمال الخير والاحسان متبرعين لهم بالعشر من غلاتهم اقتداءً بالشريعة الموسويَّة . وبتمادي هذا التبرّع صارت الكنائس

تعتبره فرضًا وبعد إن كان يصرف كله على الفقرآء والبائسين صار يصرف عليهم منه ثلثه فقط ثم أحاط به الكهنة برمته لفائدتهم الذاتية

(٥٥) وكان صنف من الرهبان يُسَمَّى ريموبوت مؤلفًا من الثلاثة والاربعة يعيشون بالمدُن لكنه لاختلاطه بالجمهور لم يسلم من عدوى الفساد فساءت سيرته وسقط وتلاشى ذكره

(٥٦) وبهذا الزمان أمر والدس باستيفآء الخراج عينًا من الفلاحين وجعله كسوة جندي عن كل ثلاثين فدانًا فضايقهم بذلك. ونرى فيه بقيةً من الوثنيين بسباقات الخيل في غزة فانهم كانوا يتسابقون فيها مع المسيحيين، فيعوذون خيلهم بآلهتهم والمسيحيون يرشونها بالمآء المصلَّى عليه من كهنتهم وبالأخص من راهب يُسَمَّى هيلاريون الذي كان لمآئه شهرة بالفوز على الاخصام[1]

(٥٧) وقبل هذا الزمان كانت سطوة العرب تمتدُّ شيئًا فشيئًا بالحدود الشرقية وانما تجمل القسطنطينية للعرب كان يوقفهم عن التوغل بأملاك الرومان. لكن إذ مات ملكهم قادتهم الملكة ماوية لخرق معاهدتهم

(١) ومن هذا النوع ما يحكى عن سكان الكونكو بأوربقيا الشرقية وطريقه دخولهم بالاسلام ان احدهم طلب من الشيخ حرزا يعلقه على ديكه اذا قاتل ديكا آخر فكتب له الشيخ آية من الفاتحة ولما غلب ديكه اقبل جيرانه على الشيخ يشترون منه هذا الحرز فاعترض عليهم الرجل بأن الحرز خاصته فصار الشيخ يكتب لهم احرازاً من آية بعد آية من الكتاب الي ان علمهم القرآن برمته

مع الرومان فاجتاحوا أرض فلسطين وفينيقيا وتخطوا إمارة حَجَر متهددين مصر من جهة رأس البحر الاحمر فهادنهم والنس وعمل معهم معاهدة جديدة . ولأن كثيرين منهم كانوا مسيحيين من مذهب المصريين اشترطوا عليه اقامة اسقف منهم بالاسكندرية و بعثوا لها كاهنًا يدعى موسى الذي بوصوله أراد لوقيوس أن يرسمه لكنه أبى الاَّ أن يكون ارتسامه من الأساقفة الهوموسيانيين المبعدين بالصعيد

(٥٨) ومن هذا الوقت خرجت حَجَر من ملك الرومان و بعد ان كانت أسقفيةً عامرة بالكنائس ولها باب نصر جميل ومرسح للالعاب لعبت فيها ايدي سبا وأهملت حتى صارت ركمة يعوي فيها الذئب ثم انتسبت من الناس اعصاراً إلى ان اهتدى اليها الرحّالة بركهرد وكشف عمّا بقي من آثارها من ورآء الاثل والدفل والشوك

الفصل الثامن

تيودوسيوس الاول . ارقاديوس . تيودوسيوس الثاني

سنة ٣٧٩ م الى ٤٥٠

تيودوسيوس الاول سنة ٣٧٩ م الى ٣٩٤

(١) يمتاز حكم تيودوسيوس بضربته القاضية على الوثنية ، لا سيما وان هذا الدين كان قد ابتدأ ان يسقط حتى من قبل ان صارت المسيحية دين الملوك وكان قسطنطين قد زعزع أركانه بقفله عدة من معابده لكنّ تيودوسيوس فانه بأول سنة من ملكه سنّ شريعة بأن دين المملكة بأسرها (ما خلا من كانوا يهوداً) هو التثليث ، و بعد قليل أمر بحفظ يوم الاحد عن العمل فيه دون السبت و بعث حاجبه قينجيوس لمصر مأموراً بتنفيذ هذه الاوامر

(٢) فاستقبل أسقف الاسكندرية تيوفيلوس هذه البلاغات بأعظم الفرح والسرور و بادر حالاً بتطهير معبد مترا وكسر الأصنام بمعبد سيرابيس الشهير وعرض ما كان فيه من آلات العبادة لسخرية المسيحيين رغماً عن وجود كثيرين من اهل المدينة ممن كانوا لم يزالوا

يكرمون هذا المعبد فاجتمع منهم جمهور عظيم وثار مدافعًا عن دينا وتقاليده من هذا التعدي فاصطدم الفريقان حتى جرى الدم كالسيل إلاّ أن الوثنيين كانوا أقل عدداً فاضطروا للانهزام وهرب زعماؤهم من الاسكندرية خوفًا من الحكّام

(٣) ثم استأنف الأسقف هدم معابدهم وكسر أصنامهم فصب منهم أجراسًا، إلاَّ صنماً واحداً أبقاه ليكون سخرية لرجاله. وقطَّعت الجنود صنم سيرابيس الخشبي بالفؤوس وأحرقوه أما رجلاه فيظن بأنهما كانتا من الرخام واحداهما الآن محفوظة « بالبريتش موزيوم » في لندن ولا دليل على أصلها إلاّ كبرها

(٤) وعند انتهاب معبد سيرابيس تشتت السبعمائة الف كتاب التي كانت فيه لأن المؤرخ الاسباني أوروسيوس الذي زار الاسكندرية بالعهد التالي لم يجد فيه لهذه الكتب أثراً سوى الخزانات الخاوية

(٥) وهنا يجبرنا الانصاف أن نقول بأن كل اضطهاد ديني هو ممقوت أكان من وثنيين أم مسيحيين لا سيما وأنه يصيب أحرار الناس اكثر من سواهم فان الذين اضطهدهم أسقف الاسكندرية كانوا من علماء ذلك الزمان حنفاء، وأحدهم أولمبيوس كاهن معبد سيرابيس كان مع كبر سنه ومقامه رجلاً وديعًا حليماً عاقلاً مسموع الكلمة لا عيب فيه كافضل شهداء المسيحيين ومثلهم حر الافكار . لا بل ان الفرق بين الاضطهادين هو بعيد جداً لأن الوثني كان عن سياسة

واقتصاد فقط . واما المسيحي فكان عن غلوّ بدين اساسه الرحمة والوداعة سليم دواعي الصدر لا باسطًا اذًى ولا مانعًا خيرًا ولا قائلاً هُجراً

(٦) وبعد هذا الاضطهاد لم يبقَ للوثنيين معابد ولا مدارس يأوون اليها بالاسكندرية فانسحب البعض منهم الى قانوبوس وفتحوا هناك مدرسة لتعليم الكتابة القديمة وبالاخص للسحر والطلاسم . وتحولت معابدهم لكنائس طُمست نقوشها وصورها بالطين والكلس ولكن الآن وقد مات اهلها فقد قُشط عنها الطين وها هي ترى الآن فلا تحرك عاطفةً ولا ساكنًا .

(٧) وثابر المصريون المسيحيون على تحنيط موتاهم كالسابق ، رغمًا عن تحريمها عليهم من انطونيوس . أما اغوسطين فكان بالضد يحمد من ثباتهم عليها ، يقينًا منهم بالبعث . وكانوا قبلاً يصورون ايزيس كالنجم سيروس طالعًا مع الشمس عند اول فيضان النيل ، فصاروا يصورون العذراء فوق هلال صاعدة للسماء . وكانوا يشعلون الشموع بمعابدهم المظلمة ، فصاروا يشعلونها بالكنائس الغير مظلمة . وكان لهم عيد يُسمى عيد الشموع ، فصار عيد الشعانين . وكانوا في الخامس والعشرين من شهر طيبي الموافق عشرين من كانون الثاني يعيّدون بأكلهم الحلاوَى فصاروا يأكلونها في

السادس من هذا الشهر بعيد الظهور . كما انهم بوضعهم بالقرن الرابع رتبة كهنوتية قد اتبعوا بذلك الطريقة المصرية القديمة التي لم تكن تعرفها الاغريق ولا الرومان و بينما كهنة مسيحي الدنيا تلبس الصوف كان لباس كهنة مصر من الكتان النقي البياض كلبس كهنة الاوثان من قبل ، او لأنه كما جآء في كتاب الوحي «لبس الابرار» . ثم انهم قلدوا اولائك الكهنة بحلق اواسط رؤوسهم . ومن قبل الفي سنة كان للمصريين كاهن في ثيبه لقبه حاجب باب السمآء ، فصار حامل مفاتيح السمآء البابا

(٨) وبعد أن صار الايمان بالتثليث اجباريًا انتدب الامبراطور مائةً وخمسين اسقفًا للقسطنطينية لتقرير قانون الايمان النيقي فصادقوا عليه ولعنوا الاريوسيين وطردوهم من كنائسهم ففرح بذلك المصريون والعرب وازدادوا محبة وولآء للامبراطور حتى انه لما احتاج لجند يثق به ليرسله لتساليا لم يجد أوثق من المصريين لهذه الغاية

(٩) وإذ حان الوقت لفيضان النيل بتلك السنة ولم يفِ ، ضجَّ الوثنيون وتفاءلوا من خراب معابدهم وهيا كلهم حتى خشي الحاكم اواغريوس ان يعقب ذلك شغب وقتال فكتب يخبر الامبراطور بالامر لكن اذ بعد قليل فاض المآء زال البأس وسكن الناس

(١٠) وبعد زمان اثناسيوس وسقوط الاريوسيين بالاسكندرية

انحصرت العلوم عند الوثنيين كثيون وفافوس وديوفنطوس ممن وصلت الينا كتبهم بالحساب والجبر والهندسة والاسطرلاب الصغير وفيضان النيل والسنة المصرية من٣٦٥ يوماً ، اما بولس الاسكندري فانه يحسب السنة من ٣٦٥ يوماً وربع يوم على التقويم اليولياني مبتدئاً من عهد ديوقليتيان . ومن تفصيله عن كيفية معرفة يوم الاسبوع من معرفة يوم الشهر وطريقة معرفة رأس السنة بأي يوم يقع من الاسبوع نعلم بأن تقسيمنا الايام الآن هو عين تقسيم المصريين . كما ان من سرده اسماء الآلهة المختصين بايام الاسبوع نعلم بأن تسميتنا لها منقولة عنهم ايضاً . وقبل ذلك كان المؤرخ هيرودوتوس قد أشار الى مثل هذا ، وديون قاسيوس يزيدنا بأن كل يوم من اسبوع المصريين هو باسم نجم وان سبت اليهود كان يُسمى « سب » وهو ساتُورن الرومان وزُحَل العرب

(١١) ومن كتبة هذا العصر كان المنطيقي هورابولو احد أساتذة الاسكندرية ثم القسطنطينية ، الَّف كتاباً بلغة القبط يفسّر فيه الكتابة الكهنوتية ترجمه لليونانية كاتب يُدعى فيليب ولكنه لم يحسن الصنعة فأتت ترجمته قليلة الفائدة

(١٢) ومن نتائج اضطهاد الاريوسيين بأول هذا العهد كان تعطيل المدرسة العليا المسيحية التي كان يرأسها غودون خَلَف ديديموس الاعمى والثالث عشر من رؤسائها الفضلاء مدة القرنين الاخيرين

منهم اثنان ام ثلاثة على المذهب الهوموسياني بينما اكثر التلامذة كانوا اريوسيين ، فاما عادت السلطة للهوموسيانيين انسحب غودون مع تلامذته الى صيدا من بمفيليا ولم يبقَ بالاسكندرية مدرسة عليا الاَّ عند الوثنيين وضاعت حينئذٍ منها تعاليم اقليمنس واوريجين وهيراقلاس وديونيسيوس

(١٣) فلم يخرج بهذا الزمان كاتب من مسيحي مصر البتَّة انما يوجد لمطران الاسكندرية تيوفيليوس رسالات سنوية كان يصدرها لاساقفة مصر معينًا لهم فيها يوم الفصح وفيها طعن بحق اوريجين ترجمها جيروم للاتينية . وكان بالصعيد الراهب يوحنا الموصوف بالقداسة وروح النبوة وكان الامبراطور يعتبره ويستشيره بمحفوظه

ارقاديوس سنة ٣٩٤ م الى ٤٠٨

(١٤) ولما تُوفيّ تيودوسيوس انقسمت المملكة مرَّةً اخرى ، فان ابنه الاكبر ارقاديوس استولى على القسم الشرقي منها وابنه الأصغر هونوريوس على القسم الغربي ، اما الحاكم فعلاً في مصر فكان الأسقف تيوفيليوس خصم الاريوسيين مذهبًا والاغريق سياسةً وبذلك استمال عواطف المصريين لجهته . ولما رهبان الصعيد زعموا أن بسفر التكوين وقانون ايمان نيقيا تصريحًا بتجسد الخالق ، وأنكر عليهم ذلك ديوسقوروس اسقف هرموبوليس ورهبان شطيس

مستشهدين بقول اوريجين ان الخــالق هو روح لا غير ، رأى تيوفيليوس أن يطاوع الاولين وحزبهم الأقوى . ولكونه لم يجترئ على تكفير اوريجين بالاسكندرية فطلب من ابيفانوس أسقف قبرس أن يسنده وهذا جمع في سلاميس اساقفة الجزيرة وقرر معهم تكفير اوريجين ، ذاك الفاضل الذي ظل مدة قرنين من الزمان قدوة المسيحيين وامامهم

(١٥) ولم يكن هذا الخلاف لينتهي بالجدل فقط بين المصريين أكان الموضوع مسيحيًا أم عجلاً أو تمساحًا فان اثناسيوس قام بجنود الاسكندرية الى جبل النطرون واجتمع اليه رهبان الصعيد فكبسوا منازل رهبان شطيس وأحرقوها وعاثوا في اهلها

(١٦) وهكذا نرى اننا كلما تقدمنا بتاريخ المسيحية المصرية كلما زدنا حزنًا وأسفًا فان الناس شرعوا بهذا الزمان ينبشون قبور الشهداء والقديسين ليتبركوا بعظامهم و يستشفون بامسها وازدحمت كنائس القسطنطينية بالموميات حتى ان يوحنا فم الذهب شكر من مصر لتغذيتها أجسام فقراء العاصمة بحنطتها وقلوبهم بايمانها ، وقال هذا وهو ليس من مذهب المصريين

(١٧) ومن تقاليد المسيحيين الوثنية بذاك الزمان كان اكرامهم لبعض اشجار بأنها مقدسة . فقالوا بأن الأيخ (برسيا) هي شجرة يسوع المقدسة لأنها أظلّته وابويه حينما أتوا مصر وسجدت له . وان شجرة

منها في هرمو بوليس كانت تشفي مرض لامسها وان الامبراطور يوليان أمر بقطعها نكاية بالمسيحيين وكانوا يزرعون هذه الاشجار في حدائقهم واذا ذبلت قالوا بأن الوثنيين كانوا يؤذونها فأمر ارقاديوس بأن كل من قطع أو باع شجرة منها يغرم بدفع جزآء قدره خمسة ارطال من الذهب ، ولكن رغماً عن ذلك فان وجودها انقرض مع الزمان ربما لعدم معرفتهم بطريقة تربية شجرة غريبة لا علم لنا بحقيقة جنسها الآن انما اكثر الظن بأنها كانت شجرة السَّلَم (ميموزا) التي اذا مسَّتها يدٌ حنت أغصانها كأنها تسلّم ولذلك تحبها العرب وتحرّم أذاها

(١٨) وقد رأينا انحطاط العنصر اليوناني بالاسكندرية بسقوط الحزب الاريوسي بالمائة السنة الاخيرة فالآن نرى ايضاً انحطاط الاسكندرية من ثروتها وعجزها عن نفقة تنظيف النهر والترع بجوارها لأننا نرى الامبراطور آمراً بتخصيص اربعماية صولدي من مدخول كماركها لهذه الغاية وذلك عبارة عن مائتين واربعين ليرة من عملتنا الدارجة

(١٩) وبهذا الزمان اشتهر قلوديان اليوناني الاسكندري بشعره اللاتيني حتى كاد أن يُعدّ من طبقة ورجيل ولوقريتيوس واويد وكان ارقاديوس واخوه هونوريوس يكرمان منزلته كثيراً

(٢٠) وكان بهذا الزمان من مشاهير الغربآء بالاسكندرية النطاسي بولس من اجينا ، جزيرة بالقرب من اثينا ، له كتاب بالطب مفيد

وسينزينيوس الفيلسوف الافلاطوني المتنصر على يد البطرك تيوفيليوس الذي لم يعترف بالبعث الاّ بعد أن صار أسقفاً على البطلسيه ، بالقرب من القيروان ، وهو رجل متزوج مع ان القانون يستدعي عفّة الأسقف . وكان البطرك قد سأله أن يترك زوجته لدى ارتسامه اسقفاً لكنه أبى هجرها ، لا بل قام معها يخدمان الدين والرعية أحسن خدمة . وكان قد درس الرياضيات بصباه على الاستاذة هِپَّاثيا ابنة ثيون الوثنية فظلّ يكاتبها من البطلسيه بالمسائل العلمية ويكلفها بارسال آلات الرصد التي أهدى منها اسطرلاباً للقائد الروماني رفيقه هناك

(٢١) أما من وجه الحالة الاقتصادية فان مصر كانت حينئذٍ باسوأ الحالات . فمن جهة كانت قبائل افريقيا تسطوا على ليبيا وبعض الارياف فتسلب وتنهب ما امكنها ومن الجهة الاخرى كانت الرمال تسطوا على المزارع فتعطلها حتى ضاقت الاماكن على الفلاحين فهجروها وتحول اعظمها الى مستنقعات وبائيّة وأُهملت المقالع لتوقف البناء ، ومناجم الذهب لفراغها منه . وكان سينزينيوس يرى هذه الحال بعين ملؤها الدموع من فقر البلاد ويسأل الله لطفه بالعباد ليلاً ونهاراً

تيودوس الثاني سنة ٤٠٨ م الى ٤٥٠

(٢٢) واذ مات ارقاديوس خلفه ابنه تيودوسيوس وهو بسن الثماني

سنين وبعد ذلك بخمس سنين مات البطرك تيوفيليوس فتجدد النزاع بين الاريوسيين والهوموسيين على خلفه فاولائك كانوا يريدون تيموتاوس وهؤلاء ،وهم الاكثرون، كانوا يريدون كيريل نسيب البطرك المتوفي فتجادلوا وتشاحنوا وتضاربوا بالأسواق ورغمًا عن ميل القائد ابوندنتينوس للاريوسيين فان الفوز كان لحزب كيريل فأقاموه بطركاً

(٢٣) ولم يكن كيريل أقل بغضًا من سلفه للاريوسيين ولليهود أيضًا وكثيراً من الأوقات كان المسيحيون يتعدون على اليهود لا سيما في مرسح الالعاب والرقص يوم السبت فتخاصموا يومًا وفصلت الجنود بينهم قبل أن يؤل الامر الى قتال لكنّ المسيحيين ادّعوا بأن اليهود تهددوهم بحرق بيعهم فتجمهروا باليوم التالي وعلى رأسهم البطرك وهجموا على كنائس اليهود فنهبوها وأحرقوها وطردوا كافة اليهود من المدينة

(٢٤) فاستآء الحاكم اورستيس من تصرف البطرك ولا سيما من خسارة الجزية اليهودية ولكن لما بلغ رهبان جبل نطريه بأنه يرغب التعرض للسلطة الكنائسية هرولوا للاسكندرية وتجمهروا بأسواقها . واذا مرّ بهم الحاكم بعجلته شتموه صارخين بوجهه «يا وثني يا اغريقي» لا بل ان احدهم عمونيوس رماه بحجر أدماه فسل حرسه سيوفهم وبددوا هؤلاء الرهبان وطردوهم من البلد وقبضوا على المجرم وقتلوه فاعتبره

البطرك شهيداً وابنه باسم القديس توما. لكن لما الجمهور لم يطاوعه على ذلك برجل أحمق عدل عن رأيه والغى التأبين المذكور

(٢٥) إنما كل هذه الشناعات لا تُعد شيئًا إزاء ما كان من جناية هذا الأسقف ورعيته فيما بعد. فان هِيبَّاثيا إبنة ثيون المذكورة آنفًا المولودة سنة ٣٧٠ زوجة ايزيدور الفيلسوف البديعة الحسن والكمال ومعدن اللطف والذكاء، ومن علماء زمانها المفلقين، وخطباء المدرسة الأفلاطونية المعدودين، كانت عن غير قصد منها قد أثارت حقد الهوموسيين عليها لعدم اتباعها دينهم فعقدوا نيتهم على هلاكها وترقبوها يومًا وهي مارة بعجلتها فهجموا عليها وسلُّوها من مركبتها وجرُّوها وراءهم على الأرض إلى معبد قيصر وهناك جردوها من ثيابها ورجموها حتى ماتت ثم مزقوها إربًا إربًا وحملوها لأتون خارج المدينة أحرقوها فيه وذلك في الصوم الكبير سنة ٤١٥ ولضعف الحكم ذهب دمها هدراً

(٢٦) وبهذه الأيام انحصر المذهب الأريوسي بين الجنود اليونانيـة ، فالذين كانوا بحصن بابل أقوى حصون مصر بنوا فيها كنيسة لهم باسم القديس جرجس أي الاسقف الاريوسي الأخير، والذين كانوا بالبطلسية فعلوا نظيرهم ولم يزل اسم هذا المكان جرجا وصاروا يرسمون صورته كفارس يشك برمحه تنينًا هو أثناسيوس الهوموسياني كما هي صورته على بعض النقود الانكليزية . أما اتخاذ الانكليز القديس جرجس شفيعًا لمملكتهم لا يُعرف له باب إلا أن تكون الصورة

أعجبتهم فنقلوها . ولكن القديس الذي يستحق أن يسمى شفيعًا لهم فهو غريغوريوس لأنه كان أول مبشر لهم بالمسيحية فربما انهم قديمًا قد اشتبهوا بالاسمين لقرب مخارج حروفهما فبدلوا أحدهما بالآخر وهم لا يشعرون

(٢٧) أما الهوموسيون فكانوا يبنون كنائسهم على اسم القديس اثناسيوس وصاروا يسقفونها بالخشب عوضًا عن الصفاح القديم ثم ان تيودوسيوس لكثرة الوفود التي كانت تأتيه من الاسكندرية بسعايات ضد البطرك أو الحاكم أمر بأن لا يخرج اليه منها وفد إلا باذن الحاكم ورأي المجلس البلدي فاستراح هو ولكنه فتح بابًا لاستبداد الحكام لا طريقة لسده

(٢٨) وبهذا العهد نُفي يوحنا فم الذهب من أسقفية القسطنطينية لاسباب لا تعلق لها بتاريخ مصر سوى أن المحرّك فيهما كان أيضًا أسقف الاسكندرية . ونُفي معه بلاّديوس أسقف غلطه مبعداً إلى اسوان وهذا له كتاب تراجم كثيرين من نساك الصعيد الذين عرفهم قبل هذا الوقت ثم لما أفرج عنه سار قاصداً بلاد الهند ليطلّع على حكمة براهمتها وبوصوله إلى عدوله على البحر الأحمر وجد هناك أسقفها موسى راغبًا بمرافقته فركبا مركبًا تجاريًّا سار بهما طويلاً وبعد مشقة بلا فائدة عاد بهما خائبين من غرضهما فصعد بلادسيوس إلى ثيبه وهناك تعرّف بتاجر إسمه قوسماس وقص عليه خبر سفره فأجابه هذا بأنه قد أفات

من بلآء عظيم لانه هو أيضًا سافر مرّة قاصداً الهند لكنه أخذ أسيراً
في جزيرة سيلان ولم يتيسر له الهرب منها الا بعد ست سنين مرّة جداً

(٢٩) وكان أسقف القسطنطينية بهذا الأثناء نسطوريوس ولأنه أنكر على
الجمهور قولهم مريم أمّ الله وقال بل هي أمَة الله واضطرب الناس لذلك
حشد الامبراطور مجمعًا من أساقفة المملكة بافسس ليحكموا بالخلاف
فحكموا بتضليل نسطوريوس فنفاه الامبراطور إلى حبيبه بالمرج الكبير
بين أخصام مذهبه لكن لما بعد ذلك سطت العربان على المرج هرب
منهم إلى بانو بوليس وتوفي فيها على أثر مشقة الفرار إلى الصحراء

(٣٠) وبالقرب من هذا الزمان جاء مصر الراهب الغاليّ قاسيانوس
ليدرس قوانين الرهبنة الصعيدية ومن كتاباته لاخوانه في إيتاليا
وغيرها من بلاد المغرب يظهر بأنه كان يحبب لهم هذه المعيشة لان
كثيرين منهم أتوا مصر وقطنوا الصعيد ، ولعدم معرفتهم لغات القوم
القبطية أو اليونانية وجب إرسال قوانين الرهبنه لجيروم في روما
ليترجمها لهم وهم الذين نشروا في تلك الجهة من مصر رسم الحواري
بطرس قابضًا مفتاحًا . ويرى الآن رسمه على جدران معبد السبّوعة
القديم بالنوبة مواجهًا صورة رمسيس الثاني الذي أصلاً كان يواجه
أحد الآلهة مقدمًا له هداياه

(٣١) وللرهبان فضل لا ينكر لانهم ترجموا العهد الجديد للثلاث لغات
القبطية وهي الصعيدية والبشمورية والقبطية الصحيحة لغة الارياف

وترجموا قوانين مجمع نيقيا وأخبار الشهدآء والآباء الاولين وقوانين الكنيسة القبطية وكتاب الحكمة الدينية المسمَّى بستيس صوفيا الذي ينكر معجزة الحمل بيسوع ويزعم بأنه إذ درج أتاه الروح القدس بصورة صبي من سنّه وعانقه فامتزجا وان من هذا الامتزاج كان اتحاد الطبيعتين بيسوع

(٣٢) وترجموا التوراة والانجيل لليوناني مكتوبين على جنس من الورق لكنَّ أقدم صورة وصلت الينا من هذه الترجمة هي على الرق . صورة منها بالواتيكان وأخرى بمكتبة باريس وأخرى في بطرسبرج وأخرى بالبرتش موزيوم جميعها من نقل الاسكندرية . والاوليتان ربما هما أقدم هذه النُّسَخ . وبمقابلة النسخة التي في لندن على التي بالواتيكان يظهر لنا كيف كان التدرج للجدال بين علمآء اللاهوت عن يسوع لقول بعضهم « نُنْ بوسّهِ بكاره » وقول آخرين « بوسّهِ نُنْ بكاره » اي لا يقدر يخطيء أو يقدر ألا يخطيء . أما الترجمة اللاتينية المسمَّاة « ولجات » فانها منقولة عن ترجمة يونانية قديمة ولضعف لغتها وترجمتها الحرفية بدون اعتبار وضع الكلام بين لغة ولغة يظهر بأن مترجمها كان يونانيًا من الاسكندرية

(٣٣) وبهذا العصر تقدمت صنعة عمل الورق من الفافير (ومنه اسم الورق بلغات الافرنج لكون الفاء والباء مترادفتان) حتى جاز أن يسمى ورق الكتَّاب أي الكاغد اما ورق الفافير المستعمل بأول

قرن من هذا التاريخ فكان يؤخذ على طبيعته ويُلصَق بمادته ، ثم بالقرن الثالث صار يلصق بالغراء انما ورق هذا الزمان لم يكن بقوة القديم منه فلم يبق له أثر . وبوجه الاجمال لا يوجد كتاب مسطَّر قبل القرن الحادي عشر إلاَّ ما هو على الرقّ

(٣٤) وبهذا الزمان حضر للاسكندرية بعض شبان الأرمن لدرس اللغة اليونانية وتصحيح ترجمة الكتاب المقدّس وكان بينهم موسى الخوريني الذي عُرف فيما بعد بمؤرخ الارمن . وكلهم كانوا مرسلين بعناية البطرك اسحق والعالم مزروب ، رجلين من أهل الفضل والذكاء ، وغايتهما كانت إبدال حروف لغتهم المنقولة عن لغات الفرس والاغريق والسريان بحروف يونانية تناسب مخارج لغتهم وأيضاً تصحيح ترجمة الكتاب المقدس المنقولة عن العبراني والسرياني على الصورة اليونانية فلما وصل هؤلآء الشبان للاسكندرية لم يجدوا فيها أستاذاً مسيحيًا فاضطروا لدخول المدرسة الافلاطونية التي كان رئيسها سيرانوس فقرأوا فيها كتب اللغة اليونانية والتاريخ وتاريخ أرمينية لموسى يشهد باستفادته كثيراً من هذه المدرسة . ولما اكملوا دروسهم عادوا لبلادهم فازدهت أنديتها بعلومهم وآدابهم ولم تزل مؤلفاتهم بأيدي رهبانهم بدير القديس اليعازار بالبندقية واكثرها منقول على رقّ قديم مغسول يظهر فيه أثر من أيات الكتاب المقدس بلغة اليونان القديمة

(٣٥) أما كتبة هذا الزمان المسيحيون فما منهم من يستحق الذكر . فان

كيريل البطرك لم يترك لنا سوى تشنيعه على النسطوريين و يوليان والرهبان المجسمين . وايزيدوروس ترك رسالات دينية جدلية كتبها من باوزيوم ونونوس من بانوبوليس الذي ترجم انجيل يوحنا شعراً وله نشيد بوصف باخوص الاه الخمر اليوناني

(٣٦) وكانت رهبان جبل سيناء عرضة بذلك الزمان لتعدي العربان لا حصن لهم سوى الفقر بين تلك الجبال حول وادي فاران وسفح جبل سربال وكان جبل سربال يسمى أولاً جبل سفر والعرب للآن تسميه وادي المكتّب. انما اسمه الاول فلاعتباره منزل الوصايا العشر والثاني فلسبب الكتابات التي تركها الزوّار على صخوره من الف سنة أو اكثر قبل هذا الزمان ، بعضها رومية و بعضها عبرية من زمان حزقيا لا يفهم منها الاّ القليل

(٣٧) وكما كان الطب قديمًا من اختصاص الكهنة كان صنف من الرهبان أيضًا مصلحتة الطب يُسمّى فارابلاني لمداواة وخدمة المرضى المحتاجين مجانًا . فحصل له اعتبار من الحكام وحاز على امتيازات وعلوفة من الدولة مما جعل كثيرين يرغبون الاستخدام فيه حتى من ذوي الثروة لكنّ الدولة رأت أن تحصره بستمائة نفر من ذوي الحاجة .وكان صنف آخر من الرهبان يعتني باسعاف الفقرآء والغرباء البائسين

(٣٨) ورأى الامبراطور فقر الاسكندرية بهذا الزمان فأمر بزيادة مائة وعشرين أردبا من القمح للاحسانات اليومية ومنح أعضاء مجلس

البلدية امتيازات تنشطهم على الخدمة و بنى كنيسة كبيرة على اسمه وأمر الحاكم بترميم الكنائس العتيقة و بناء كنائس جديدة بقدر الامكان

(٣٩) نعم ان الوثنية كانت قد ضعفت جداً بعد هدم معابدها إلا أن علماء الفلسفة الغير متنصرين كانوا لا يزالون من مدرسي العلوم الرياضية واللغة والتاريخ بالاسكندرية لكنهم لانكسار شوكتهم واهمالهم من الدولة صدئت قرائحهم فانحصر اشتغالهم بتفسير أرسطو وأفلاطون والجدال بأيهما الأفضل . ثم لما انتقل سيرانوس رئيس المدرسة الافلاطونية إلى أثينا صارت هي الكرسي لهذه الفلسفة

(٤٠) أما فلسفة أرسطو فكان الاستاذ فيها بالاسكندرية أولمبيودروس الصعيدي المولد الذي نعلم منه ان بزمانه كانت الزراعة بالصعيد نامية جداً وانها كانت تُسقى كل ثالث يوم مرة بالصيف وكل خامس يوم مرة بالشتاء من آبار عمقها مائتان الى ثلاثمائة قدم فتعطي موسمين من الشعير وثلاثة من الدخن بالسنة . ويقول بأنه زار أرض النوبة قاصداً جبل الزمرد بالصحراء العربية بين قبطوس و برينيقة التي هي الآن ساقية القبلة بالجهة الغربية من البحر الاحمر ، لكنه لم يصل اليه لاعتراض العربان بتلك الجهة . و يوجد له كتاب بالكيميا في مكتبة باريس لم يطبع بعد

(٤١) وبهذا الزمان حضر للاسكندرية فروقلوس للدرس فيها ، فقرأ

فلسفة أرسطو على أولمبيودوروس والرياضيات على هيرو والبيان على ليوناس والمنطق على اوريون الذي كان يفتخر بأنه من نسل كهنة ثيبة ، ودرس اللغة اللاتينية بمدرسة الرومان ونبغ فيها ثم مال لدرس فلسفة أفلاطون فلحق بسيرانوس في أثينا وفيها صنف كتبه بالرياضيات والفلسفة الافلاطونيـة على منهج خاصّ له ربّما شطّ فيه اكثر من شطط بلوتينوس بالموضوع . وهـذا شأن كل مذهب اما بالزيادة اما بالنقصان يضيع معهما القصد الاول

(٤٢) وممن هاجر من علماء ذلك الزمان لاثينا فمفريتوس وأوريون وأسقليبيودوتوس الـكاتب بالطب والرياضيات والآداب وهو برهان على وجود بقية لم تعتنق الدين الجديد، لا بل ان كثيرين من الناس كانوا لم يزالوا على أعتقادهم القديم لأننا نراهم سنة ٤٣٦ مجتمعين سرًّا بالليـل باحدى مراسح الاسكندرية للاحتفال بعيد النيل لما سقط بهم المـكان وهلك منهم بسقوطه خمسمائة نسمة أو اكثر

(٤٣) وبهذا الوقت كانت إدارة الأمور الخارجيـة بالقسطنطينية متعلقة بوزيرين من الأعيان أحدهما للمشرق والآخر للباقان وكانت مصر حينئذٍ مقسومة إلى ست ولايات ، القيروان والمرج والصعيد والأرياف الغربية والأرياف الشرقية وليبيا . وكل والٍ من ولاتها له دائرة من مستشارين وقضاة ومحاسبين وكتبة أما الجنود فـكانت موزّعة بين خمسين من مدنها كلها تحت قيادة أميرٍ كبير ودوقين لو كانت

قوتها بنسبة عددها لكان حكم هذا الامبراطور يُعدُّ بعظمة حكم اغسطوس لكنَّ الجنود الرومانية واليونانية كانت بينها قليلة والباقون كانوا اخلاطاً اكثرهم من رعاع الافرنج والمغاربة والصرمط والاشوريين والبلقانيين والافريقيين والسودان ، بينما حامية العراق كانت من السودان وحامية تراسيا اكثرها من عربان الصعيد بخيلهم وجمالهم ، لان القبط كانوا قد نسوا الرجولية من زمان طويل لا يصلحون للجنديَّة . وكان جبيُ الخراج مناطاً بعدة امرآء ومستخدمين بكل من هذه المقاطعات ما عدا الاسكندرية التي كانت لا تعطي خراجاً بل تستفيد منهُ

(٤٤) ثم بعد قليل من هذا الزمان انقسمت الولايات الى ثمانٍ ، الصعيد الأعلى وفيه احدى عشرة مدينة والصعيد الأوطى والمرج الكبير وفيهما عشر مدن ثم القيروان ثم شطر من ليبيا جهة مصر ثم شطرها الآخر جهة الصعيد ثم النصف الغربي من الارياف ثم نصفها الآخر ثم بوبسطي التي هي الآن تل البسطه الى البحر الاحمر منها ما كان تحت حكم دوقا ومنها تحت حكم قائد عسكري ومنها تحت حكم متصرفين ، أي ان مصر اصبحت اقليماً رومانيًا

(٤٥) ولكن بينما كانت دولة المشرق تزداد ضعفًا ونحولاً كان المغرب يهرول الى الخراب التام هرولةً بسبب انتقاض الولايات الاوربية

وشطوط افريقيا على الدولة . فالغوط اهل جنوب الدانوب سطوا بأول هذا العهد على ايتاليا ونهبوا روما تحت قيادة ملكهم العريق وبعدهم جآء الهَنّ من شمالي الدانوب تحت قيادة ملكهم اتيلاًّ واستولوا على شمالي ايتاليا بعد موت تيودوسيوس الثاني بسنتين ولولا ان التليان يرضونهم بالمال ويموت اتيلاًّ لكانوا دخلوا روما ايضًا ونهبوها ولكن لم تكن هذه الوسائل والمرقّدات مما يفيد المرض العضّال ، فانشقّت المملكة الى نصفين وانفصلت مصر عن روما انفصالها الاول بعد ائتلافهما مدة سبعمائة سنة وعادتا غريبتين بعضهما عن بعض كما بالزمان الذي فيه ارسلت سناتو روما بعثًا لبطليموس فيلادلفوس تخطب مصادقته

الفصل التاسع

مرقيان . ليو . ليو الثاني . زينو . باسيل . انستاس

سنة ٤٥٠ م الى ٥١٨

مرقيان سنة ٤٥٠ م الى ٤٥٧

(١) ولما مات تيودوسيوس الثاني استولت اخته بولشيري على زمام الملك وعمرها اثنتان وخمسون سنة واختارت مرقيان احد الاعيان زوجًا لها واصله كان جنديًّا ككثيرين من ملوك الرومان ، فوجد المنازعات الدينية قد عادت بصفة جديدة بين المسيحيين بعد ان كادت بزمان قسطنطيوس ووالنس ، بالتحزب للهوموسيين والاريوسيين ، ان تفصل مصر عن جسم المملكة لولا تلافي هذا الخطر من تيودوسيوس الأول وسلفائه بحسن سياستهم . فان كاهنًا يدعى اوتيخيس اخذ يعظ بهذا الزمان بالقسطنطينية بالطبيعة الواحدة ضدًّا لمذهب رؤسائه القائلين بالطبيعتين ، واذ طرده البطرك من الكنيسة انتصر له ديوسقوروس بطرك الاسكندرية خَلَفَ كيريل ، وكفَّر اسقف القسطنطينية فرأىَ الامبراطور ان يحشد اساقفة

المملكة للنظر فى هذا الخلاف فاجتمع منهم ستمائة واثنان وثلاثون اسقفًا في خلقيدونيا وحكموا بضلال الكاهن المذكور واسقف الاسكندرية فعزله الامبراطور واقام بروتيروس عوضًا عنه

(٢) وكانت مصر إذ ذاك قد تبرَّأت تمامًا من مذهب اريوس واتحدت على مذهب الطبيعة الواحدة الذي صار فيها بعد يُعرف بالمذهب اليعقوبي فأبت أن تأخذ دينها عن اغريق القسطنطينية وانكرت قرار مجمع خلقيدونيا

(٣) وهكذا عند دخول بروتيروس للاسكندرية محفوفًا بالجيش استقبله الجمهور بالرجم والسهام . ولما التجأت عصابته الى معبد سيرابيس الشهير اضرم المصريون فيه النار وأبادوهم عن آخرهم واستبدوا بالمدينة حتى اضطرَّ الامبراطور ان يبعث جيشًا ضدهم ، فحاصروا المدينة وهدموا اسوارها واقرُّوا الاسقف على كرسيه. ثم امر الامبراطور بتسكير مراسح الالعاب وقطع الاحسان من الخراج مدةً من الزمان عقابًا للمدينة

(٤) وبينما هذه الحوادث تعرقل الحكام وتزعزع اركان الدولة كانت العربان تكتسب جرأةً لتشويش اطراف المملكة والتعدي عليها حتي في جنوب الشلاَّل . ولمدة ما كانت الحامية الرومانية المقيمة في اسوان قادرةً أن تصدهم عن التوغل بالبلاد ، لكن إذ انضم اليهم النبط دخلوا الصعيد وامتلأت ايديهم من الغنائم حتى حسبوا

أن لا قوة تقدر على ردّهم . فخرج اليهم القائد مقسيمينوس ونال منهم فطلبوا الصلح حالفين بأنهم الا يتخطوا حدودهم ما دام مقيماً في ثيبه فأبى مصالحتهم على هذا الشرط واشترط عليهم ردّ السلب والاسرى والمهادنة لمائة سنة ووضعهم الرهاين من اكابرهم بين يديه ، فرضوا بذلك وصالحوه

(٥) لكنه بعد قليل مات فتحرك النبط من جديد وخرقوا المعاهدة واستعادوا رهاينهم وعاثوا في البلاد كالأول

(٦) فبانتصار هؤلآء النبط تلاشت المسيحية من الصعيد وعادت الوثنية الى ما كانت من قبل سبعين سنة ، لا بل ان البعض ممن كانوا قد تنصروا رجعوا يصلّون لايزيس وسيرابيس

(٧) اما النوب ، مجاوري هؤلآء العربان، فيظهر بأنهم كانوا ارقى منهم بالمدنية لاننا نجد كتابةً رومية بلغـــة رديّة من هذا الزمان أم بعده قليلاً على جدار معبد طلميس التي هي الآن قرية قلابشي ، تشير الى ان ملكهم سلخو قد حارب هؤلآء العربان اسلاف البشاريّة الحديثين مراراً عديدة واطاعته البلاد من طلميس الى فريميس وكان يوصف بالمريخ والاسد ومن اعظم ملوك الدنيا ، اذ ان تلك البلاد كانت بتوالي الاضطراب المحيط بها قد تعطلت زراعتها بنصف مساحتها والرمال غطت على النصف الآخر منها مع ما فيه من المعابد

والاصنام كأنها تخفيها عن انظار لم تعد تعرف لها قدراً لتبقى عبرة لقوم آخرين

ليو سنة ٤٥٧ م ٤٧٣

(٨) ولما مات مرقيان خَلَفه ليو وكان اول امبراطور قسطنطيني توَّجه اسقفٌ. فاغتنم الاسكندريون فرصه غياب القائد ديونيسيوس بحرب النبط واسقطوا بروتيروس من كرسي الاسقفية ونصبوا عوضاً عنه الراهب تيموناوس العروس اليعقوبي وبلغ ذلك ديونيسيوس فهرول مسرعًا للاسكندرية لكنه لم يصلها حتى كان العصاة قتلوا بروتيروس بصومعته وعلقوا جثتــه بالترافيلون ، ولأن الأعيان شاركوا الرعاع بهذه الجناية خشي الامبراطور لئلاّ تكون الحركة سياسية تحتاج لتدبير سياسي فاستشار الاساقفة كي يمدّوه برأيهم لكنهم كانوا كالمصريين لا يهمهم شيء سوى المذهب فألحُّوا عليه بالتمسك بقرار مجمع خاقيدونيا وعزل الاسقف اليعقوبي فاضطر الى مطاوعتهم واقام اسقفًا آخر اسمه ايضًا تيموتاوس الذي صار يعرف بالامبراطوري

(٩) ثم انتقضت ليبيا عليه فأخضعها بقليل من الجند تحت قيــادة هيراقليوس ، الا انه لما كان على شطوط قرطاجنه ليسترد البلاد من الوندال فقد عمارته كلها وبعد قليل تُوفّي

زينو سنة ٤٧٤ م الى ٤٩١

(١٠) ولما مات ليو سنة ٤٧٣ خلفه حفيده ليو الأصغر لكنه بعد سنة مات هو ايضاً وخلفه ابوه زينو وكان رجل لهو ولعب فانتقضت عليه فئة بايعت باسيل صهر ليو الاول ومن المذهب اليعقوبي فاستولى على العاصمة بدون قتال ونفى منها زينو وردّ الاسقف تيموتاوس العروس لكرسي الاسكندرية سنة ٤٧٧ والغى قرار مجمع خلقيدونيا ، فاما عاد هذا الاسقف للاسكندرية دخلها كفاتح فاستبدّ بالامر وعزل ونصّب وقطع ووصل كما شآء واعاد لمدينة افسس مقامها البطريركي الذي كان مجمع خلقيدونيا حرمها منه . لكن لسوء حظ المصريين لم تمضِ سنتان حتى تغلّب زينو على باسيل وقتله

(١١) ثم عزل الاساقفة اليعقوبيين من كراسي مصر وجدّد العمل بقرار مجمع خلقيدونيا اما تيموتاوس العروس فكان بهذا الاثنآء قد توفي وخلفه بطرس منجوس فأبدله زينو بتيموتاوس الامبراطوري ليكون طوع يده ومراقباً سياسياً على المصريين

(١٢) الاّ ان لما كان مصدر المداخيل الكنائسية هو الشعب جاز له الاعتراض على تأديتها لاسقف من غير مذهبه فبعث للقسطنطينية كاهناً اسمه يوحنا يسترحم الامبراطور بابدال الأسقف ، فوعده

الامبراطور انه سيفعل متى سنحت الفرصة و بعد قليل مات تيموتاوس وأراد الشعب يوحنا اسقفًا لكنّ الامبراطور لم يرده فدعى للاسقفية بطرس منجوس مختار الرعية سالفًا واتفق معه على العمل بقرار مجمع نيقيا وترك اللدد بشأن قرار مجمع خلقيدونيا

(١٣) فهرب يوحنا الى روما كعادة سالفيه يتظلّم لأسقفها فيليكس فخاطب هذا القسطنطينية بأمره وكان بطرس بهذا الاثناء قد نقض عهده مع الامبراطور و باشر باضطهاد الرهبان المتمسكين بقرار مجمع خلقيدونيا فبعث له الامبراطور حاجبه قوسماس ينصحه ان يعتدل ولما لم يرتدع بعث القائد ارسينوس فسحبه مقيداً للقسطنطينية ليُحاكم

(١٤) لكنه بعد قليل مات فيها فتوفق المصريون لانتخاب اسقف وديع ذكي يُسمى اثناسيوس فضمّد جراحات الكنيسة بحلمه واراح الامبراطور من اخبار النزاع والشناعات لأجل المذهب

(١٥) وكان بهذا الزمان فيلسوف افلاطوني يُسمّى هيروقليس وكانت الناس تقبل عليه لاستماع فصاحته التي لم يتعرض فيها للمسيحية قط فأراد الحاكم اكراهه على اعتناق هذا الدين لكنّ الامبراطور أمر بالعفو عنه .والمؤلفات التي تركها لنا تشهدله بسمو الآداب وحسن الطويّة

(١٦) والمظنون انه بهذا الأوان وجد ايضًا المنطيقي تريفيودوروس الاسكندري ناقل اوديّسه اوميروس متكلفًا فيها عدم استعمال حرف السين اقتداءً بالمنطيقي نسطور قبله الذي يقال بأنه نقل

الالياذا متكافًا فيها الاستغناء عن بعض حروف كالألف والباء وهو تكلف ان صحّ عديم الفائدة ومن عبث الامور

(١٧) وبهذا الزمان صنَّف العالم فلوطوس الصعيدي في ليقو بولي حكايته الشعرية باختطاف هيلانه وهي حكاية عن ثلاث إلاهات ، وينوس ويونو وهيلانه ، يتخاصمن أيهنّ الأجمل فيحكم بينهن فاريس خاطف هيلانه واخذها الى ترواذا حيث كانت الحرب الشهيرة بسببها ، وهي حكاية من خرافات اليونان القديمة الاَّ ان حكاية فلوطوس اكثر احتشامًا مما آتى قبلها اذ الحكم فيها لجمال الوجه فقط واكثرما كان من تهتك وينوس امام الحَكَم انها كشفت له عن ثديها

(١٨) ولعدم وجود من يستحق الذكر من علماء المسيحيين بهذا الزمان نكتفي بذكر عوطاليس اسقف سولقة بالصعيد الذي خلَّف بعض ملاحظات على رسالات الحواري بولس اهداها للبطرك اثناسيوس وبعده بقليل جمع المنطيقي حزقيوس قاموسه اليوناني الذي كان اوفى قاموس لذاك الوقت . ومن استعاراته لهُ بعض امثال من الانجيل يُستفاد بأنه كان مسيحيًّا

(١٩) ومن كتب هذا الزمان ايضًا كتاب طويل بالطب للنطاسي عيتيوس الاسكندري يصف فيه علاجات الاولين والآخرين حتى ما هو لتطرئة جمال المرأة ، وينقل عن الملك نَخَفْسوس فائدة خاتم اليَصَب الأخضر لبعض العلل

أنستاس سنة ٤٩١ م الى ٥١٨

(٣٠) ولما آل الحكم الى انستاس جرى بسياسته على قدم سافه في مصر فان الاربعة الاساقفة الذين تداولوا كرسي الاسكندرية بزمانه كانوا يعقوبيين ، وهم يوحنا ويوحنا آخر وديوسقوروس وتيموتاوس حتى توهم المصريون بأنه من مذهبهم ، فأراح البلاد من المنازعات الدينية . انما اساقفة باقي المملكة فلم يكونوا راضين عن نفوذ اليعقوبيين لا بل ان المؤرخ الكنائسي يصف تلك الازمنة بأزمنة الضلال والفتور بالدين . واسقف تونس يزعم بأن المصريين ابتلوا حينئذٍ بمرض تركهم ينبحون بالاسواق كالكلاب ولم يكن له دواء الا الرجوع لمذهب مجمع خلقيدونيا

(٣١) لكنه لم يتم له تنصيب الاسقف ديوسقوروس بدون مقاومة من الشعب بدعوى ان ارتسامه لم يكن على السنَّة الرسولية فاضطر حاكم الاسكندرية الى خفره حتى أجلسه على كرسيه في كنيسة مارمرقص

(٣٢) ومع كل لطف هذا الامبراطور بالمصريين لم يقدر على إزالة كرههم للاغريق فكان آخر امبراطور بيزنطي ساسهم بالحكمة

(٣٣) وبالسنة العاشرة من هذا العهد اغار الفرس على المملكة فدخلوا سورية . وسنة ٥٠١ خيَّم قائدهم قبَّادِس تحت اسوار الاسكندرية لكنها أعجزته فارتدَّ عنها خائبًا إنما لانقطاع الطرقات بسبب دخول

الفرس البلاد انقطعت عنها واردات الطعام فحصلت مجاعة بالمدينة وفشى بسببها الوبآء حتى ضجّ النــاس بالعويل والبكآء فانبرى لمواساتهم رجل غني من اليهود المتنصرين اسمه اريبب واذ جآء احد الفصح اخذ يوزّع عليهم حسناته بكنيسة ارقاديوس لـكنهم لشدة حاجتهم وجوعهم كان ازدحامهم عليــه عظيماً حتى مات منهم فيه فوق الثلثمائة نسمة

(٢٤) ومن آثار هذا الزمان النفيسة نسخة بديعــة الخط والتصوير من كتاب ديوسقوريدس بالنباتات ونسخة بصفتها من سفر التكوين كلتاهما الان في مكتبة وينّا (فينّا) ايس لهما نظير

(٢٥) وبانتشار المسيحية تعطّلت المراسح اليونانية القديمة وابدلت تلك الطراغذيات الشعرية اللطيفــة لاسقيلوس وسوفوقل وعربيدس بسباقات الخيل ماخلا مراسح الاسكندرية التي ظلت مفتوحة لآخر هذا العهد للالعاب والرقص

(٢٦) وكانت المنارة القائمة على جزيرة فاروس من عمل بطليموس الثاني قد اهملت وكادت ان تخرب فأمر انستاس بالاعتناء بها وترميمها وهي العلَم الذي اهتدى به الملاحون للمرفأ مدة سبعمائة سـنة . وعن اسم هذه الجزيرة نقل الفرنساويون اسم « فار » للمنارة بلغتهم

الفصل العاشر

يوستن الاول . يوستينيان . يوستن الثاني . طباريوس
موريقي . فوقاس . هيراقليوس
سنة ٥١٨ م الى ٦٤٠

يوستن الاول سنة ٥١٨ م الي ٥٢٧

(١) وخلَفَ انستاس على كرسي القسطنطينية يوستن الأول بينما كانت الفرس تشن الغارات على اطراف المملكة التي كانت قوتها من سنة لسنة تقل وتضعف نظراً لضعف العنصر اليوناني بالقسم الشرقي منها فان تجزئةالمملكة بين اولاد قسنطنطين كانت نتيجتها تحويل العاصمة من الاسكندرية لانطاكية . والآن اذ بدأ اليونان يهاجرون ايضاً من انطاكية اخذت فئة من كنيسة سورية واسقفها سويروس باتباع مذهب مصر اليعقوبي ولكنّ الجمهور انكرعليهم ذلك وتهدد الاسقف بالقتل فهرب للاسكندرية ، انما بوصوله لها وجد بأنه لا يمكنه ان يصادق على مذهب المصريين برمته ايضاً . فان مذهبهم كان بأن

يسوع لم يُصلب بل شُبّه للناظرين كما جاء فيما بعد بالقرآن ، ومذهبه لم يكن كذلك . ولنا من تصنيفه شروط العماد باللغة السريانية يستفاد منها وجوب مسح جسم الطفل بالزيت المقدس قبل تغطيسه بالماء ولحق به كثيرون من رهبان سورية ونزل اكثرهم بدير جبل نطرية فصارت كتبهم فيه عربية وسريانية ولم يبق للغة اليونان استعمال البتّة

(٢) لكننا بالسنة الثانية من هذا العهد اذ توفي الاسقف تيموتاوس ، نجد المصريين منقسمين الى فئتين فئة تقول بمذهب سويروس وفئة تقول بالضد . فأهل المذهب الأول انتخبوا غيانا اسقفًا عليهم واهل المذهب الثاني انتخبوا تيودوسيوس . وتجدد النزاع بينهم لعدة سنين فتارةً يسود حزب وتارة يسود الآخر وكلما ساد فريق اجلى الخصم عن الاسكندرية

(٣) وكان الامبراطور السالف قد اجتهد ان يحرك عرب حِميَر اليهود اصحاب تجارة الهند والحبشة مع مصر ضد الفرس وانصارهم عرب اليمن فيوستن ارسل الآن لهم بعثًا ينشطهم على ذلك وكان رئيس وفده يوليانوس فاستقبله ملكهم الحارث بأوفر حفاوة واكرام وهو راكب عجلة تجرها اربعة افيال ، عاري الصدر والاكتاف وعليه ازار من الحرير الموشّى بالذهب وذراعاه محليّان بالدمالج المجوهرة وبيديه مجنّ ورمحان واكابر دولته حوله بالعُدّة الكاملة من السلاح وهم يردّدون بحضرته اناشيد المديح . ولما ناوله الرسول كتاب الامبراطور

اخذه فقبَّل ختمه ثم عانق الرسول واستلم منه هدية يوستن ثم فضّ الختم وقرأ الكتاب وأجاب بقبول ما اقتُرح عليه من مقاومة الفرس شمالاً وخفارة طريق التجارة مع الاسكندرية جنوباً

يوستينيان سنة ٥٢٧ م الى ٥٦٦

(٤) ولما آل الحكم الى يوستينيان دعى الاسقفين من الاسكندرية للعاصمة ثم ابعدهما واقام بولس اسقفًا واحداً عوضهما ليعمل بقانون مجمع خلقيدونيا . وبعد سنتين ابدله بالاسقف زويلوس ايضًا بالرغم عن ارادة المصريين فاحتملوه ست سنين ثم طردوه وطردوا كافة اساقفة المذهب الاغريقي

(٥) واذ بلغ الامبراطور ما اجراه اليعقوبيون بعث ابوليناريوس اسقفًا وحاكماً على الاسكندرية فدخلها على رأس الجند بزيّه العسكري ولما وصل للكنيسة خلع ثوبه العسكري ولبس بدلته الاسقفية وباشر تلاوة الصلاة لكنه لم يفتح فاهُ حتى اتاه الرجم من كل مكان واضطرَّ الى الفرار من الكنيسة فمكث ثلاثة ايام ثم ارسل مناديًا بالاسواق يدعو الناس للكنيسة لاستماع قراءة كتاب الامبراطور بالاحد المقبل فاجتمعوا واذ افتتح خطابه يتهددَّهم بالقتل ، والنساء بالسبي ، رجموه كالاول لكن باشارة منه دخلت الجنود الكنيسة شارعةً سيوفها فوقعت على القوم تضربهم بها حتى جرى الدم للركب

وانصرف منهم من سَلِمَ . وبعد ذلك لم يجترئ احد على مقاومة الاسقف الاغريقي الملكي وهذا كان اصل الروم الملكيين

(٦) ومن ثم استتب الامر للاساقفة الملكيين بصفة كهنة وولاة الا ان مصالحهم الملكيَّة كانت تشغلهم اكثر من الكنائسية لاسيما بتحصيل الاعشار والمتاجرة بها مع اوربا . وبعد زمان صار مدخول البطركية وزن الفي رطل مصري ذهبًا او ثمانين الف ليرة انكليزية من عملتنا الآن اما اليعقوبيون فكان بطركهم من صنف الرهبان لا شاغل له عن الدعاء لام الله والحواري مرقص . واختلف الطقس الكنائسي بين الفريقين فالملكيون ثابروا على تلاوة الصلاة القديمة المنسوبة لمار مرقص زائدين عليها الشهادة بوحدة جوهر الاب والابن . واليعقوبيون صاروا يتلون الصلاة الجديدة المرتبة لهم من كيريل وباسيل القيصري وغريغوريوس النازينزي باللغة القبطية والشهادة بالطبيعة الواحدة الالهيـة كاتمين غيظهم من الاغريق وكلما سمعوا من جيرانهم العرب عدم تعرض الفرس لمذهبهم وكنيستهم كلما ازدادوا كرهًا وبغضًا لولاتهم

(٧) فانتبه الامبراطور اخيراً لهـذا الحيف وشعر بضعف مملكته والخطر الذي يتهدده من جهـة الفرس فأعرض عن الجور على اليعقوبيين لا بل انه اعتنق مذهبهم ومذهب العرب جيرانهم رغبة في اكتساب ولائهم

(٨) اما الفرس فبعد استيلائهم على سورية وانطاكية دخلوا حجر عاصمة النبط فأمر يوستينيان ببناء حصن بالقرب من جبل سينا . وبالسنة الثلاثين من ملكه تم البناء فشحنه بالرهبان على نفقة الخزينة. ثم وجده منكشفًا من تلٍّ اعلى بالجبل فغضب على بانيه وقتله وبنى قلعة اصغر على ذاك التل. ومن كتابة الرهبان الباقية على جدران هذه القلعة يستفاد منها اعتقادهم بأن هذا التل هو المكان الذي فيه وقف موسى الكليم وانزلت الوصايا العشر

(٩) وبالقرب من هذا الزمان كان ايضًا بنيان ديرين اشبه بالحصون على نحو عشرين ميلاً من البحر الاحمر وثمانين جنوبًا من اسوان لا ابواب لهما ، الا ان جدرانهما كانت من اللبن . وكان احدهما على اسم مار انطونيوس والآخر على اسم مار بولس اول النساك المسيحيين . ومن ذاك الوقت الى يومنا هذا لم تخلُ هذه الاديرة من الرهبان وافقرهم وسلامة طويتهم لم يتحرَّش بهم باغٍ بينما حصون الظلم والعدوان من حولهم قد دكَّها الغزاة دكًّا وابادوا اهلها

(١٠) ولذاك العصر كانت تجارة الشرق الاقصى والصين مع مصر تمر بجزائر سيلان وسوقطرا ليد عرب وزنوج امين لا يستفاد منهم شيء عن تلك البلاد فظل الافرنج زمانًا يظنون بأن مصادر تلك الاموال من الحرير وغيره هي بلاد العرب اما سيلان فكان فيها كنيسة للسريان من رعايا مملكة فارس. والعملة الجارية فيها كانت رومانية . فبهذا

الزمان زادت حركة التجارة معها ، بعد ان ملك الحبشة حداد اليهودي كان قد زحف ضد يهود حِميَر وقتل ملكهم داميانوس (١) لما كان يصدر منه من التعدي على قوافل التجار . ثم قام بخفارة الطرقات وطلب من الامبراطور ان يبعث له مرشدين للدين المسيحي فبعث له الراهب يوحنا رجلاً صالحاً ذكياً ، الذي صار فيما بعد اسقفاً لعدولا وربما ان هذا الانتصار هو المنوَّه عنه بكتابة على قاعدة من الرخام قرأها التاجر قوسماس الاسكندري تقول بأن الملك جاز البحر الاحمر ووضع الجزية على العرب والصابئين وأذل قبائل الشمال وفتح الطريق لمصر وقهر الافريقيين شرقاً على شطوط ارض البخور ومرَّ بجبال الثلج التي تخرج منها احدى شعب النيل ، وهذا اول خبر سمعناه عن وجود الثلج بالقرب من خط الاستواء . اما اسم الملك فلم يعرف لانه كان مقطوعاً منها

(١١) فالآن ارسل يوستينيان بعثاً لحمير و بعثاً آخر للحبشة فدخل رسوله اولاً عدولا على طرف بلاد الزنج البحري ومنها صعد بخمسة عشر يوماً الى عاصمة البلاد اخصم . وشاهد بطريقه قطعاناً من الفيلة يحسب انها كانت تزيد عن خمسة آلاف رأس و بعد تأدية رسالته قطع

---

(١) لعله ذونواس

البحر الى ملك حمير قيس حفيد الحارث الذي كان يوستن راسله قبلاً

(١٢) وبعد هذا الزمان انتقض الحميريون على الحبشة فجرد ملك الحبشة جيشه ضدهم وأخضعهم وأقام عليهم ملكاً مسيحياً اسمه غطيافوس الذي استدعى الاسقف غريغنطوس ليرشدهم للمسيحية فكانوا يجادلونه ويعترضون على التثليث الى انهم اتفقوا على مجادلة علنيّة تكون ببلاط الملك بين الاسقف والحاخام هربان . والمؤرخ الكنائسي يقول بأن لما هربان أنكر التثليث ضربه الله مع رفقائه اليهود بالعمى لكنهم بدعآء الاسقف عاد لهم بصرهم وتنصروا عن آخرهم وهم وقوفٌ

(١٣) ثم انهم بعد قليل انتقضوا على غطيافوس فبعث ملك الحبشة جيشاً ليخضعهم لكن لما وصل الجيش اليهم استمالوه بهداياهم وتلطفهم فأبى محاربتهم وآخاهم، فاضطرّ الملك الى مصالحتهم. ويستفاد من كتابة رومية على حجر في اخصم بأن بعد هذا الملك وجد ملك يُسمّى الجانس تقول الكتابة بأنه المرّيخ ملك الملوك سيد الحبشة والزنج والصابئين وارض حمير وقاهر البجاة سكان الشمال بين اخصم ومصر

(١٤) وكانت اخصم مزدانة بالعمد وفيها مسلاّت كمسلات مصر ولم تزل منها واحدةٌ طولها ستون قدماً قائمة فيها، لكنها لا كتابة عليها. ومن يهود الحبشة وصل الينا كتاب اخنوخ الذي اكتسب وقاراً من

استشهاد الحواري هود بهِ والا فانه كتاب مزوَّر بعضه منقول من التوراة و بعضه ملفق من قصص الميلاد يوهم بأنه يخبر بالحوادث قبل وقوعها والامر بخلاف ذلك

(١٥) وبهذا الزمان اعتل توريد الخراج من مصر للقسطنطينية من طمع الحكام والموظفين فرأى الامبراطور ان يجعل الحكام والاساقفة المسؤولين بتصدير ثمانمائة الف اردب سنويًّا لعاصمته كان مصروف جمعها وتوريدها يبلغ ثمانين الف صولدي او ستين الف ليرة من عملتنا الدارجة

(١٦) ذلك كان حد ما اتاه هذا الشارع البارع من الاصلاحات التي لا فائدة منها للمصريين . لا بل ان رجلاً طماعًا بالاسكندرية يسمّى باحتكار كان قد اكتسب مودته ونال منه امتيازات سمحت له حيفا ستوس مؤن البلاد فكان يشاطره بالارباح منها ويجور على الفقرآء بينما العربان تسطوا على بعض املاكه بالصعيد والرمال تغطي البعض الآخر واللغة صارت هناك اكثرها عربية

(١٧) ولهذا الزمان كانت جزائر بريطانيا تختبط من تعدي السكسون عليها ، والرومان لا يهتمون لها لبعدها عنهم وضعفهم عن حمايتها . اما تجار الاسكندرية فكانوا اذا جآء الصيف يفدون اليها بمراكبهم وغلالهم للمقاوضة بقصديرها وفضتها فيبيعون كيلة القمح بما يوازي عشرة بنسات من عملتنا الحاضرة . وهكذا كان الفينيقيون يفعلون

قبلهم بثمانمائة سنة واكثر ومع ذلك لذلك الوقت لم يخطر للبريطانيين ان يتعاطوا طريقة الاسفار البعيدة بمراكبهم . وهذا السفر كان اطول سفر تلك الايام وأبعد من السفر من البحر الاحمر لسيلان لكنه ربما استغرق عشرين يوماً فقط اذا ساعده الهوآء والاَّ فأشهراً . ولا شك بأن قدوم هؤلآء التجار لشطوط بريطانيا قد أفاد برابرتها مبادىء التمدن وهيَّأهم له

(١٨) ولما ألقى الامبراطور مسؤلية الخراج على الحكام والاساقفة والموظفين معهم وكانت الفقرآء أحياناً تسطوا على انبار الحنطة وتنهبها اضطر حاكم الاسكندرية الى تحصين انبار الخراج بالفياله فبنى حولها سوراً منيعاً واصلح القنطرة المؤدية لقرية حيروم ونقل داره الى مسافة يوم غربي الاسكندرية احتياطاً من ثورات المصريين

(١٩) ثم ان يوستينيان امر بأن لا تُستأنف دعوى للعاصمة قيمتها تحت عشرة ارطال ذهب اي خمسمائة ليرة انكليزية ، وحرَّم على من بقي بالاسكندرية من علمآء الفلاسفة ان يخطبوا فيها، فهاجر منهم كثيرون الى سورية حيث الفرس اكرموا مثواهم لا بل انهم فيما بعد لما عقدوا شروط الصلح معه اشترطوا عليه قبول هؤلآء العلماء بالاسكندرية وعدم التحرش بهم

(٢٠) ولذلك الزمان كان يظن بأن ارض مصر لا تعرف الزلازل، لكن المؤرّخ اغاتيا البيزنطي الذي كان بالاسكندرية ليتمم دروسه فيها

بعد درسه الفقه في بيروت يخبرنا بأنه بوجوده بالاسكندرية اشعروا بزلزلة وتركوا بيوتهم خوفاً من سقوطها عليهم وان لم يسقط منها شيء

(٢١) ومن بدع هذا الزمان كان ما ذهب اليه الراهب تيمستيوس من انكار العصمة من الخطأ ليسوع ، وما ذهب اليه الراهب تيودوروس من انكار بشريته . وكان قوسماس التاجر المذكور آنفاً قد ترهبن أيضاً وصار يقول بأن البحث بنص الكتاب المقدس حرام ، وقول علماء الهيئة بأن الأرض كرة هو كفر بنص التوراة الذي يقول بأنها مبسوطة

(٢٢) وبأول الامر كنا نرى المسيحيه تستند على الفلسفة لتقوية دعائم الايمان . لا بل أنها كانت شريكتها بالعلوم وسيدتها بالآداب . لكن اذ عقب ذلك اضطهاد خمسين سنة من عهد ديقيوس الى ديوقليتيان وتكاثر عدد المنتسبين لهذا الدين صار احمق الرهبان يستهزيء بآراء قلامنس واوريجين ويلعنهما . ولكره هذا الجمهور اسم العلماء صار يكره حتى العلوم نفسها

(٢٣) وبالسنين الاخيرة من اسقفية ابوليناريوس لم يكن له ادنى اعتبار عند الاغناطيين ولا التيودوسيين ولااليعقوبيين فاعتزلوا كلهم عن كنيسته ثم اذ مات أحد الاساقفة وأراد أبوليناريوس اقامة أسقفاً عوضه لايرضي الاغناطيين نتفوا لحية أحدرهبانه بأسواق الاسكندرية ثم بعد قليل مات أبوليناريوس وأقام الامبراطور الاسقف يوحنا

خَلَفًا له ، فالقبط لم يستعرفوه واليونان أتهموه بالمانوية . و بعد ثلاث سنين مات فانتخب القبط بطرس اليعقوبي بطركاً لم ترضه الاغريق. و بالسنة التي مات فيها يوستينيان مات بطرس ايضًا

(٢٤) وكانت نقود مصر من عهد ديوقلينيان قد صارت كلها سلطانية . اما نقود يوستينيان فكان منها ما عليه اسم الاسكندرية بالحرف الاغريقي وصورة الامبراطور و بازائها علامة الصليب ، ووزنها كان غير اوزان نقود القسطنطينية. فان نقود القسطنطينية كانت من ٥ و ١٠ و ٢٠ و ٣٠ و ٤٠ درهماً معبّر عنها بالحروف الابجدية ه ي ك ل م اي M Λ K I E أما نقود الاسكندرية فكانت أولاً بوزن اثنى عشر درهمًا معبّر عنها بالحروف ب ي اي B I ثم صارت بوزن ثلاثة وثلاثين درهماً معبّراً عنها بالحروف ل ج أي Γ Λ ولما بالمداولة خف وزن الاولى صارت الثلاثة منها تصرف بواحدة من الاخيرة. وأظن ان الدرهم عندهم كان وزن اثنتي عشرة حبة خرنوب

يوستن الثانى سنة ٥٦٦ م الى ٥٧٨

(٢٥) في عهد مرقيان كانت جزيرة فيله وفيها معبد ايزيس ملجأ وثنيين ذالك الزمان اما في عهد يوستن الثاني ، يظهر من كتابة وجدت فيها أخيراً ، بأنها صارت أسقفية ومعبدها صار كنيسةً وحكم هذا الامبراطور

اثنى عشرة سنة لا شيء فيها مما يذكر عن أحوال مصر ولا بالأربع السنين بعدها من حكم طيباريوس

موريقي سنة ٥٨٢ م الى ٦٠٢
وكسرى

(٢٦) ثم آل الحكم الى موريقي زوج ابنة طيباريوس . وبالعشرين سنة التي حكم فيها كانت المملكة على نوع ما مطمئنة لانشغال أخصامها الفرس بحركاتهم الداخلية الى أن أسقطوا ملكهم كسرى حفيد كسرى انوشروان فهرب منهم ملتجئًا بموريقي وراجيًا منهأن يمده برجاله وماله ضد أعدائه فأحبه موريقي ورثى لحاله وأمدَّه بما طلب فسار نحو بلاده واستعاد كرسيّه وعزّه فزوَّجه موريقي ابنته وظل عنده بعزَّة ولد الى ان مات

(٢٧) وبهذا الزمان أنشأ هولوجيوس أسقف الاسكندرية نُزُلاً للفقرآء واشتهر الراهب أنستاس من دير جبل سيناء بعلم اللاهوت وألَّف الناسك يوحنا قليماقوس في وادي طُلى على سفح الجبل المذكور كتابه بفضل العيشة الرهبانية الذي سماه أدراج النعيم وقسمه الى ثلاثين درجة كعدد الثلاثين سنة الاولى من سني يسوع .

(٢٨) انما الاعظم شهرة من رجال تلك الايام كان المنطيقي يوحنا الفيلسوف الارسطوطاليسي ولكنه لقوله بأن الآلهة هي ثلاثة خرج عن الكنيسة

وهذاهو يوحنا الذي عرفه عمرو بن العاص فاتح مصر فيما بعد واكرمه

(٢٩) وبآخر أيام موريقي ألَّف تيوفيلاقطوس سيموقطا كتابه بحياة هذا الامبراطور وحروبه مع الفرس يقول فيه بأن الليلة التي مات فيها بالقسطنطينية سقطت أنصاب الاسكندرية من قواعدها وان انسانًا نصفه حيوان خرج قبيل ذلك من النيل وأخبر بقرب أجله

(٣٠) وبينما كان المشرق يخيّم عليه ظلام هذا الجهل بزغت شمس الهدى والعرفان في اقليم انكلترا المسمّى الآن كِنْتْ بقدوم الراهب الروماني اغوسطين مبشراً بالمسيحية فيها، وأنورت مكة بالهلال المحمدي

فوقاس سنة ٦٠٢ م الى ٦١٠

(٣١) ثم انتقض الجند بالقسطنطينية على موريقي، وأحدهم فوقاس توصّل الى قتله فرفعه الجند لكرسي المملكة . لكن اذ بلغ كسرى قتل حميهِ كرَّ بجيشه للانتقام من قاتليه فاخترق البرّ الى ان خيم تحت أسوار القسطنطينية ، ولما لم يقدر على فتحها ظلّ محاصراً لها مدة هذا الحكم كلها فتضايق أهلها لانقطاع المؤن عنهم وضجروا من استبداد فوقاس بهم . وبالسنة السابعة من ملكه خلعت الاسكندرية طاعته وبايعت هيراقليوس ابن حاكم القيروان أمبراطوراً وقُتل البطرك بالحركة فيها . وبعد قليل دخل هيراقليوس بأسطوله مياه القسطنطينية واستولى عليها فقتل فوقاس وأخذ كرسيّه

هيراقليوس سنة ٦١٠ م الى ٦٤٦ والفرس

(٣٢) وبالثلاث السنين الاولى من حكم هيراقليوس كان اسقف الاسكندرية تيودوروس. ثم انه مات فأقام الامبراطور عوضه الأسقف يوحنا ابن حاكم قبرس برضى المصريين، فأصاب لأن هذا الأسقف أبدى من الاحسان والرأفة بالفقرآء ما اكسبه لقب المحسن. وبمدة الخمس السنين الاولى من اسقفيّته بنى عدة مستشفيات للمرضى ولتوايد النسآء ونُزُلاً للبائسين. وكان مذهبه بالمسيح انه لم يُصاب بل شُبِّه لهم

(٣٣) أما الفُرس فانهم بقدوم هيراقليوس للقسطنطينية رحلوا عنها وانتشروا بأملاكها الشرقية الى حدود مصر. فكانت تهرب من وجههم السكان الى الاسكندرية حتى ضاقت المدينة بالفقرآء والمسلوبين واضطر البطرك يوحنا الى مساعدتهم فأنفق عليهم من خزينته قيمة ثمانمائة الف ليرة من عملتنا الدارجة الآن واستدان فوقها مبلغًا آخر لسد احتياجات هؤلآء المساكين، ولسوء حظهم لم يفِ النيل بتلك السنة فأمحلت البلاد وقلّت الأطعمة وتسربلت الايادي. وبالسنة الخامسة من هذا العهد فتح الفرس اورشليم وبالثامنة فتحوا الاسكندرية واشتروا منها ما كان فيها من حبوب الخراج بثمن بخس جدًّا. ومن ذاك الحين انقطع خراج مصر عن القسطنطينية

(٣٤) وكان حاكم مصر نيقيطا يرى أن لا قدرة له ولا مدد من القسطنطينية لرد الفرس فهرب لقبرس والبطرك يوحنا معه. وهكذا لما وصل الفرس للاسكندرية دخلوها بدون قتال لا بل بالترحاب من القبط الذين كان اول اهتمامهم انتخاب اسقف يعقوبي يُسمَّى بنيامين بدون تحرش من الفاتحين ولا حرج

(٣٥) وبهذا الزمان حضر للاسكندرية الأسقف السوري توما ليصحح ترجمة العهد الجديد السريانية على الاصل الاغريقي الذي كان في دير مار انطونيوس، وتصحيحه هذا صار المعول عليه فيما بعد. اما الترجمة الموجودة الآن في دير الرهبان الاغسطوبيين في روما فهي من عهد هيراقليوس. وبهذا الوقت كان العالم السوري بولس من طلى بدير مار زاخوس بالاسكندرية يعتني بترجمة التوراة من النسخة السبعينية الاغريقية. وفيه شاع ذكر النطاسي هارون السوري الذي صار فيما بعد قدوة اطباء العرب. وازداد بهذا الزمان توارد الرهبان السوريين لا سيما من شرقي الفرات الى جبل نطرون ولم ينقطع لقرون عديدة

(٣٦) ولما كانت السنة العاشرة من احتلال الفرس ارض مصر انتقض عليهم انصارهم العرب والسوريون الذين سهلوا لهم اولاً هذا الاحتلال نظراً لما بينهم وبين المصريين من الإخاء فاغتنم هيراقليوس

فرصة هذا الانقسام وزحف ضدهم فأجلاهم بوقت قصير عن سورية ومصر وهرب البطرك اليعقوبي معهم

(٣٧) وبالسنة الثانية عشرة من حكم هيراقليوس وهي سنة ٦٢٢ م هرب محمد بن عبد الله بن عبد المُطَّلب ، داعي العرب للاسلام ، من اعدائه القرشيين بمكة الى المدينة في ليلة الجمعة سادس عشر شهر چولاي الذي صارت تُورَّخ منه فيما بعد سنو الهجرة . وبعد ذلك رأى هيراقليوس اتحاد العرب واتفاقهم على النبوَّة فكان يجاملهم ويكرمهم بهداياه الى أن قُبض النبي فقطع علاقاته معهم

العرب والخلافة سنة ٦٣٢ م و ١١ هجرية

(٣٨) وبُويع لأبي بكر بالخلافة بالمدينة في شهر ربيع الأول في اول سنة احدى عشرة هجرية يوم تُوفي النبي . قال عُمَر ان أبا بكر كانت بيعته فلتة وقى الله من شرّها فمن عاد الى مثلها فاقتلوه فأيُّما رجل بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فليُقتل الرجلان . وقيل لما بلغ ذلك علي بن ابي طالب لم ينكره . واكثر ما رُوي أنه قال ،ما شاورتني فأجابه ابو بكر ،ما اتَّسع الوقت للمشورة وإنا خفنا ان يخرج الامر منا ثم صعد المنبر فقال أقيلوني من هذا الامر فلست بخيركم . فقال علي لا نقيلك ولا نستقيلك ، فأجمع الانصار والمهاجرون على خلافته التي بايعه عليها اولاً عُمَر فقط

(٣٩) ولما ذاع خبر وفاة النبي ارتد خلق كثير من العرب ومنعوا الزكاة واشتد رعب المسلمين بالمدينة لاطباقهم على الردّة فآووا الذراري والعيال الى الشعاب ، فأمّر ابو بكر خالد ابن الوليد على الناس و بعثه في اربعة آلاف وخمسمائة من الرجال فسار حتى وافى المرتدّة وناوشهم القتال وسبى ذراريهم واقتسم اموالهم . ثم ارسله ضد مسيلمة باليمامة لادّعائه النبوّة فحاربه ورماه عبد اسود اسمه وحشيّ بحربة وقعت على خاصرته فسقط عن فرسه قتيلاً . ومن هناك توجّه خالد الى ارض العراق وفتح الحيرة صلحًا . ومسيلمة المذكور هو الملقب بالكذّاب

(٤٠) وكان ابو بكر قد وجّه قبل ذلك ابا عُبيدة بن الجرّاح في زهاء عشرين الف رجل الى الشام . و بلغ هيراقليوس ورود العرب ارض الشام فوجه اليهم البطريق سرجيس في خمسة آلاف رجل لمحاربتهم . وكتب ابو بكر الى خالد عند افتتاحه الحيرة يأمره ان يسير الى أبي عبيدة بالشام ففعل والتقى العرب والروم فانهزم الروم

عمر بن الخطاب سنة ١٣ ه الى ٢٣

(٤١) قيل ان ابا بكر لما دنا اجله قال لعثمان بن عفان كاتبه ، اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد عبد الله بن ابي قحافة وهو في آخر ساعات الدنيا و بأوّل ساعات الآخرة ، ثم غمي عليه ، فكتب عثمان

« الى عُمَر بن الخطاب » . فلما أفاق قال ، من كتبتَ ؟ قال عُمَر قال قد اصبتَ ما في نفسي ولو كتبتَ نفسك لكنتَ اهلاً له وأجمعوا على ذلك ودعوهُ خليفةَ خليفةِ الرسول ، ثم قالوا هذا يطول فسُمّي امير المؤمنين

(٤٢) وفي زمان خلافته كان فتح العراق وسقوط ملك العجم وفتح دمشق واورشليم ومصر . واذ بلغ مصر ان العرب يقصدونها هرب بطرك الاسكندرية جرجس بحراً واقام الامبراطور عوضاً عنه الاسقف قيروس الماروني الذي كان على مذهبه بالقول بالطبيعتين والمشيئة الواحدة خلافاً لمذهب الملكيين القائلين بالطبيعتين والمشيئتين ولمذهب اليعقوبيين القائلين بالطبيعة والمشيئة الواحدة . فازداد هؤلاء نفوراً من الاغريق وكرهاً لهم وهكذا لما دخل عمرو ابن العاص ارض مصر وجدهم من انصاره ضد الروم . اما الاسكندرية فكان فتحها في الثاني والعشرين من شهر دسمبر سنة ٦٤٠ م وغرة محرم سنة ٢٠ هجرية

(٤٣) ولما شاهد عمرو مدينة الاسكندرية عجب من عظمتها فكتب الى امير المؤمنين عُمَر يقول اني فتحت مدينة مصر العظمى ووجدت فيها اربعة آلاف قصر ومثلها حمامات واربعمائة مرسح واثنى عشر الف حانوت واربعين الف يهودي يدفعون الجزية واني باعث اليك ما طلبته مني من الطعام احمالاً يكون اولها عندك وآخرها عندي

(٤٤) وكانت شروط عمرو مع المقوقس زعيم القبط على ان تكون للقبط الحرية المطلقة بدينهم وعليهم جزية ذهبين عن كل رجل . فقول المؤرخ العربي ان الجزية جمعت ثمانية آلاف الف ذهب فيه إما مبالغة واما جور من عمرو معما اشتهر عنه من الرفق بالمصريين لانه من المحقق بأن ذاك الشعب برمته من صغير وكبير رجالاً ونساء لم يكن حينئذ يفوق اربعة آلاف الف نسمة

(٤٥) وقد لاقى عمرو بفتحه الاسكندرية تعباً جماً ومقاومة عنيدة من الروم ، وليس كما يزعم ابو الفرج بأنه فتحها صلحاً

(٤٦) فالاسكندرية رغماً عن انحطاطها عما كانت بأوان عزّها فانها بعين هؤلاء العربان كانت تُرى ولا بد بغاية الجمال والكمال . فان الناظر اليها من البحر كان يرى تلك المنارة على جزيرة فاروس وهي اول منارة عرفها الناس واستفادوا بها. ثم يرى السد الذي يصلها بالبر على ثلاثة ارباع الميل وتحته القناطر لمرور المراكب الصغيرة من مرفإ للآخر . اما قناة الماء العذب التي كانت فوقه فانها كانت قد تعطلت. ثم بنزوله للبر كان يدخلها من باب الشمس . وبعيداً منه يرى باب القمر وبينهما طريق واسع مستقيم مزان بالعَمَد وفيه ضريح الاسكندر وطريقاً آخر يعارض هذا ذاهباً شرقاً وغرباً من الباب القانوبي الى باب المقابر الذي لم يكن باقٍ من عُمُد زينته الاَّ القليل . اما الموزيوم الجديد فكان قد اقفر من الطلَبة . ومدرسة الفلسفة المسيحية

قد مُحي اثرها . وخارج الباب الغربي كانت ترى المقـابر القديمة والمسيحية الجميلة المنظر . اما مقبرة اليهود فكانت حقيرة وخارج الباب الشرقي . وكان يرى بالقرب من الباب الغربي داخل السور معبد سيرابيس البديع الذي لم يفقهُ جمالاً غير قابيتول روما ، وقد صار الكنيسة الكاتدرائية وفي ساحته العمود الشامخ حاملاً تمثـال ديوقليتيان على فرس . وتليه كنيسة كانت قديمًا معبـد قيصر او السباسته امامها مسلتان من عمل ثيبه اتى بهما الرومان الاولون و بقيتا لزينة كنيسة مسيحية . وكانت بالمدينـة كنائس اخرى اعظمها كنيسة مار مرقص ، والسيدة ، و يوحنا المعمدان ، وتيودوسيوس وارقاديوس ، و باخوس ، وكان الميدان على الشاطيء الشرقي قد صار خرابًا ، ومن تلك الجهة كانت ترعة النيل تأتي المدينة لشربها وعلى هذا الشاطيء كانت مخازن الخراج المحصَّنة وغير بعيد منها كانت الثكنة القديمة وفيها بقايا اعمدة كان اغسطوس احضرها لبناء مدينة نيقو بوليس . وكان البروخيوم الحصن القديم والشبيه بمدينة قد اصبح خرابًا ، وحارة اليهود لم يبقَ فيها غير فقرآء يدفعون الجزية

(٤٧) الاَّ ان هذا الانحطاط لم يكن شيئًا ازآء ما جلبه تسلط البدو على هذه المدينة . وما كلهم عُمَر ولا عمرو . فانهم اولاً ضيقوا مجالها عما كان ، تاركين عمود ديوقليتيان خارجًا عن السور الجديد و بعد ذلك اكتفوا منها بالسدّ فقط نظراً لقلة سكانها . ولم يبقَ من مزارع مصر

سوى ثلاثة آلاف الف فدان او الثلث مما كانت اوان عزّها

(٤٨) اما مكتبتها الشهيرة فان التي جمعها البطالسة بالموزيوم في البروخيوم كانت قد احترقت بحصار يوليوس قيصر فيه . والتي أهداها مارق انطوني لقلاوفطرا وكانت في معبد سيرابيس لعهد يوليان قد انتهبت من المسيحيين بعهد تيودوسيوس . لأن المؤرخ اوروسيوس الذي زار معبد سيرابيس بهذا العهد يقول بأنه لم يجد فيه حينئذٍ كتابًا . لكن لا بد من أن يكون لمعبد قيصر والموزيوم القلودياني من مكتبة لأننا نرى علماء الوثنيين لعهد يوستينيان والمسيحيين بعده مشتغلين بالتدريس والتصنيف الذين لا بدّ لهم من المكاتب . انما قول عبد اللطيف بأن احراق هذه الكتب بأمر امير المؤمنين عُمَر قد كفى حمامات الاسكندرية ستة اشهر ففيه ولا شك مبالغة ، وربما ان الصحيح هو ان وقدها تدريجًا هو الذي اخذ هذه المدة الطويلة . اما اصل الحكاية فهو ان يوحنا المنطيقي سأل عمرو بن العاص ان يسمح له بهذه الكتب اذ لا حاجة للعرب بها . فاستشار عمرو امير المؤمنين بأمرها فأجابه ان يحرقها لأنها ان كانت تطاوع القرآن ففيه غنًى عنها وان كانت تناقضه فاعدامها واجب وهي شنشنة قد عرفناها من بعض المسيحيين قبله لا سيما وانها تخالف نص القرآن وقوله ، سبحان من علَّم بالقلم علَّم الانسان ما لا يعلم .

(٤٩) ومن هذا الزمان تحولت لغة مصر للعربية وخرجت الاسكندرية من نطاق اوروبا ودخلت بحكم الخلفاء وتاريخهم . وخط العرب مدينة جديدة على انقاض مدينة بابل بين منّف وهليوبوليس وسموها الفسطاط . وبعد زمان بنوا مدينة اخرى اقرب الى سليوبوليس وسموها القاهرة . وزينوها بالمساجد والمآذن من انقاض الاسكندرية ومنّف وهليوبوليس حتى اننا نجد البعض من بلاطاتها ، واصلها من اقدس البلاطات الوثنية ، تداس الآن بالارجل

(٥٠) وبالتدريج تزايد عدد المهاجرين لمصر من عرب وسوريين ، الاّ أن القسم الاكبر منهم قطن المدن وقليلاً ما اختلطوا بالفلاحين نسل قبائل الغالّه من افريقيا الشرقيــة الذين اسلموا . أما القبط فلما يرحوا على دينهم المسيحي وحرفتهم الصناعة والتجارة . وبين سلسيليس والشلاّل الثاني نرى النوب سليلة النبط الذين حاربوا ديوقليتيان ومنهم كانت ملوك ثيبه وما وراها . وهم والقبط كانوا اولئك الذين شادوا المعابد الضخمة وحنّطوا موتاهم وكتبوا بالخط المصري القديم ، وكانوا وقتًا ما كلهم مسيحيين . وشرقي النيل بالقرب من القصير وابي سنبل الى مروي نرى عرب العبابدة اصحاب الجمال كما كانوا في عهد رمسيس . وبالصحراء بين السودان والبحر الاحمر جنوب اسوان نرى عرب البشارية نسل اولئك العربان الذين على

زعم الاغريق كانت عيونهم في صدورهم . ونرى بالحبشــة سليلة اولئك اليهود المهاجرين من ايله ، وهي الآن عقبه ، ربما من قبل زمان سليمان وهم للآن اقرب شبهًا بهيئتهم ولغتهم لليهود من العرب . وجهــة سينا نرى عرب الطور سليلة قادة موسى الى عزيون جبر على خليج ايله . وبالقرب منهم عرب العلويين سليلة الادوميين اخصامه اصحاب حجر ، وهي ثمود القرآن

(٥١) وما زالت مصر من ذاك الزمان تسعد تارةً وتشقى اخرى ، ومرسحًا تلعب فيه اغراض الرجال بدولة الاسلام الى ان صارت ولاية عثمانية ، ثم حكومة خديوية لا تأثير لها على المذاهب المسيحية لا سيما وان القبط لما انقطعت مصاهرتهم للروم والعرب المسيحيين ضعفت ذريتهم وقل عددهم .

(٥٢) ثم عندما شاع استعمال البخار لتسيير المراكب الثقيلة وتحوّلت الافكار لايجاد اقرب الطرق لمواصلات اوربا مع الشرق الاقصى ، عرض المهندس ده ليسبس[1] على الخديوي اسمعيل حفر ترعة لهذه المراكب بين البحر المتوسط والبحر الاحمر واظهر له فوائدها لمملكته، فقبل رأيه وساعده على انشائها شركة تجارية . وتيسّر له فتحها بايامه السعيدة سنة ١٨٦٩ م في السابع عشر من شهر نوفمبر باحتفال

(١) الذي كان ايضاً القنصل الفرنسي بالقاهرة وصار يعرف فيما بعد بالكونت ده ليسبس

عظيم حضرته الامبراطورة اوجني ، وصارت هذه الطريق تدعى ترعة السويس . وكان اسمعيل هماماً مقداماً كريماً الا انه قصير النظر بالعواقب، والكريم يُخدع ، فخدعه رجال احاطوا به لمكاسبهم وورطوه بالنفقة الفارغة فاستدان ولما عجز عن الوفآء سلّم خزينته لاهل الدين من انكليز وافرنسيس . ولأنه خالف رأيهم بعزله وزيره القبطي نوبار باشا تنفّر منه الانكليز ، وكانوا قد اشتروا منه ، برأى وزيرهم لورد بيقونسفيلد ، حصته من اسهام شركة الترعة فحملوا السلطان على خلعه سنة ١٨٧٩ فخَلَفَه ابنه توفيق الطيب الذكر ، لكنه بعد قليل تلبَّك امره من عصيان عرابي باشاوزير حربيته الراغب في الغآء المراقبة المالية بتحريك من السلطان عبد الحميد سنه ١٨٨٢ . فاتفق الانكليز والفرنسيس على اسقاطه فاعجزهم ، وجيَّش المصريين لمقاومتهم . واذ كانت مراكب الانكليز بالطريق للاسكندرية لعبت السياسة بالافرنسيس فانسحبوا وتركوا الانكليز وحدهم لسد هذا الخرق فدخل الجنرال سارجارنت ولسلي الاسكندرية باربعين الف مقاتل ولاقى عرابي في التل الكبير وهزمه ثم قبض عليه في القاهرة ونفاه سنة ١٨٨٣ بأمر دولة الانكليز الى جزيرة سيلان حتى سنة ١٩٠١ التي أُفرج عنه فيها . وعُيّن له معاشٌ بالقاهرة من ستمائة جنيه بالسنة الى ان مات

(٥٣) وبهذا الاثنآء كان توفيق قد تُوفي وخلفه ابنه الشاب عباس ، اذ

النائب الانكليزي بالقاهرة، الماجور اولن بارنج الذي كان اصلاً احد المراقبين الماليين وصار فيما بعد لورد كرومر . فحداثة سن الخديوي القت على عاتق هذا الكهل حملاً ثقيلاً بادارة البلاد ذمّةً لصاحبها وسياسة للصالح العام . فأمّن البلاد وأجرى العدل واصلح المالية. ورأى من عباس جهلاً بهذه الخدامات وميلاً للاستبداد برأيه فاستعمل معه قساوةً القته بعصبية الاستقلال . وكان الانكليز قد احتلوا السودان ، قاتلة رجالهم الصدّيق غوردون . فلبثوا يراقبون الخديوي عباس الى ان لما ابتدأت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ وهو بالاستانة لم يأمنوا من عودته لمصر ورأوه يتناجى مع اخصامهم فأسقطوه من امارته و بايعوا عمَّه حسين سلطانًا حرّا من تداخل الاستانة . وكان يرجى منه خير كثير لمصر لكنه بعد سنتين مات وخلفه اخوه فؤاد ونعم الخَلَف . والمأمول الآن ان تقدم البلاد المادي والأدبي المستفاد من اساتذتها الانكليز يسمح لهم بتركها لعهدة اهلها بطريقة تحفظ الامن للسكان وتقي مصر والترعة من التعدي عليهما ، لما لذلك من الاهمية لتجارة الدنيا بأسرها . ولعل المستقبل لا يلبث ان يرينا مصر من الممالك الراقية ومن انصار الشعوب الحرَّة الساميَّة ان شاء الله .

١٥ مارس سنة ١٩٢٢ . صح :— وها هي الآن مملكة دستورية !

فقلت لها سيري وارخي زمامه ولا تبعديني من جناكِ المُعلَّلِ

الاسلام

(١) الاسلام دينًا هو دين التوراة والانجيل ، ومذهبًا وشريعةهو أحد المذاهب المسيحية الجدلية (التي عرفناها بهذا الكتاب) والشرع الموسوي والعربي ، فلا حجة لنا عليه ولا اعتراض البتة . ولو انحصر الدين بمن خرج منه من الصُّلّاح والفضلآء لبارى الاسلام أيَّ دين كان . انما انتشاره السريع عند الذين قالوا آمنّا ولمّا يدخل الايمان في قلوبهم ، وتقصير الرعاة بانشاء المدارس ، واستبداد اكثرهم وعملهم بأهوائهم الشخصية ، يقرأون الكتاب فلا يتجاوز حناجرهم ، قليلاً ما افاد جمهور المسلمين من أمهّات الكتاب . والنفس أمّارة بالسوء ، فلذلك نراهم أحط درجةً من الامم الراقية ، فيسلبون هذا الدين محاسنه كما تمّ ذلك لجهال اليهود والمسيحيين قبلاً و بعداً

(٢) اما الخلافة وعليها سل السيوف فانها بالوضع شوروية ، ومزيتها العدل وكمال التقوى والآداب والاّ فهي سلطنة عسكرية ، وليسلّ لأجلها سيفهُ من شاء . ولا يصلح الله من أمر قوم حتى يصلحوا ما بأنفسهم . وقى الله الاسلام من استبداد الحكّام المسلمين ، آمين

(٣) ومن أول الزمان وقع في الاسلام التباين بالآراء كما وقع في

النصرانية . بعضه في الاصول وهو موضوع علم الكلام ، وبعضه في الفروع وهو موضوع علم الفقه . فالخلاف في الاصول ينحصر في اربع قواعد ، الاولى الصفات والتوحيد ، الثانية القضآء والقدر ، الثالثة الوعد والوعيد ، والرابعة النبوّة والامامة

(٤) وكبار فرَق الاصوليين ستٌّ ، المعتزلة وضدها الصفاتية ،والقدرية وضدها الجبريَّة ، والمرجئة وضدها الوعيدية . ويتشعب من هذه اصناف فتصل الى ثلاث وسبعين فرقةً . وقد رأينا مثلها بالنصرانية

(٥) فالمعتزلة يعمّهم من الاعتقاد نفيُ الصفات عن ذات الباري تعالى هربًا من أقانيم النصارى ، واتفقوا على ان كلامه تعالى محدَث بخالقه في محلّ وهي المصاحف . وكان منهم احمد بن حائط زعم ان المسيح تدرَّع بالجسد الانساني وهو الكلمة القديمة المتجسدة كما يقول النصارى . ومنهم عيسى الملقَّب بالمُزدار بالغ في القول بخلق القرآن وان العرب كانوا قادرين على مثله فصاحةً وبلاغة . اما الصفاتية فانهم يثبتون لله صفاتٍ ازلية من العلم والقدرة والحياة ، حتى من السمع والبصر والكلام الى حد التجسيم زاعمين بأن لا بد من اجرآء حكم الآيات الدالة عليها كالاستوآء على العرش وسفر التكوين . الا أن هذا المذهب نقضه ابو الحسن الاشعري بمنعه التشبيه

(٦) والقدرية ينفون القضآء والقدر فيقولون ان العبد قادر خالق لافعاله ومستحق عليها ثوابًا ام عقابًا ، فاللهُ تعالى منزَّهٌ عن ان يضاف

اليه شرٌّ وظلم وسموا هذا النمط عدلاً . اما الجبرية فيقولون ان الله تعالى يخلق الفعل والقدرة في الانسان لكنها لا تؤثر بفعله وان أثّرت وشطّت به فان الله مالك في خلقه يفعل فيهم ما يشآء ، ولا يُسأل عما يفعل وهو في ذلك كله عادل لان العدل على رأيهم هو التصرُّف بما يملكه المتصرِّف ، ويوافقون المعتزلة في نفي الرؤية وخلق الكلام

(٧) والمرجئة يقولون بارجآء صاحب الكبيرة من المؤمنين الى القيامة ويقولون ايضاً انه لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة . أما الوعيدية فيقولون بتكفير صاحب الكبيرة وان كان مؤمناً. فها أننا في كل هذا نرى خيال المسيحيين قبلهم واحسبه قد أخطأ المحجة

ولو كنتَ بي من نقطة البآء خفضةً رُفعت الى ما لم تنله بحيلةِ

(٨) أما مذاهب الفرعيين المفسّرين للأحكام الشرعية والمسائل الاجتهادية فالمشهورة منها اربعة.مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومذهب مالك بن انس ، ومذهب محمد بن ادريس الشافعي ، ومذهب احمد بن حنبل . واركان الاجتهاد ايضاً اربعة ، الكتاب والسُّنَّة والاجماع والقياس، وذلك لأنه اذا عرض لهم حادثة شرعية من حلال او حرام ابتدأوا بالكتاب فان وجدوا فيه نصًّا عليها قضوا به والاَّ فزعوا الى السُّنَّة وهي الحديث الصحيح عن النبيّ، فان وجدوا فيها خبراً حكموا بموجبه والا فزعوا الى اجماع الصحابة لانهم راشدون حتى لا يجتمعون على ضلال، وان لم يروا به مسنداً فزعوا الى القياس

لأن الحوادث غير متناهية والنصوص متناهية. وقد حان الآن التوسع بالقياس كما يقتضيه حال الزمان

(٩) ومن الأئمة داود الاصفهاني نفى القياس أصلاً وابو حنيفة شديد العناية به وربما يقدّم القياس الجلي على احاد الاخبار، ومالك والشافعي وابن حنبل لا يرجعون الى القياس ما وجدوا خبراً او أمراً، وكل هؤلاء من اهل السنّة وقد نقلنا خبر الامام على عنهم لكنه فاسد عند الشيعة

(١٠) اما الشيعة فهم الذين شايعوا عليّ بن ابي طالب ابن عم النبي وصهره وقالوا بأن الامامة لا تخرج من اولاده الاّ بظلم ويجمعهم القول بثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر وان الامامة ركن من اركان الدين لا يجوز تفويضه الى العامّة. ولهم ضد بالخوارج الذين منهم من خطّأ عليّاً فيما تصرّف فيه ومنهم من كفّره ومنهم من جوّز ان لا يكون في العالم امام اصلاً وان كان فيجوز ان يكون عبداً او حرّاً او نبطيّاً اي اسوداً، اذا كان عادلاً وان عدل عن الحق وجب عزله وقتله وكيف كان الامر فان قتل الحسين حفيد النبي لا يُعذر

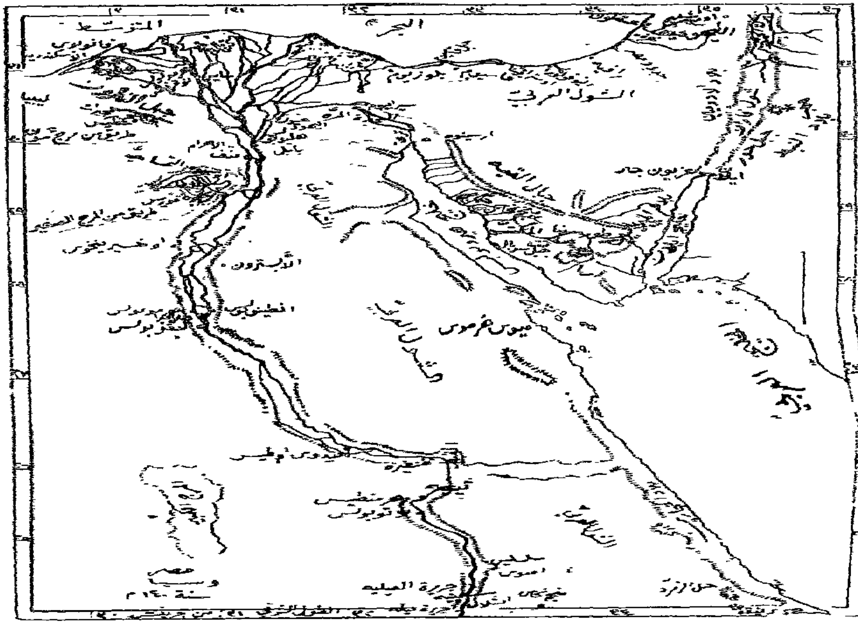
(١١) فعلى هذا البناء صار الاسلام احد اركان العالم الدينية الموقّرة، لكنّ انتشاره السريع وظروف الزمان التي شاع فيها لم تسمح بتهذيب جمهوره الهمجي بعد هدمه اركان التمدن القديم ولم يتهذّب بعدئذ حتى خرج الحكم من يد العرب فتوقف بينهم الاجتهاد وصدئت

القرائح وأصبح الاسلام مقصّراً عن اصل وضعه كما جرى قبلاً بالمذهب المسيحي وقبله بالموسوي

(١٢) والحالة هذه فان النهضة العربية الجديدة لا تقوم الآن ما لم يكتنفها رجال صادقون يديرون مصالحها بالحكمة والعدالة والاقتصاد مستندين على شعب طائع رزين يسهل لهم الاهتمام بترقية الآداب وطرائق العمران واكتساب ثقة العالم المتزعزعة من سوء السياسه السالفة

تمّ هذا الكتاب بعون الملك الوهّاب في سابع عشرة
ليلة خلت من يونيو سنة ١٩٢٠ م
والثلاثين من شهر رمضان سنة ١٣٣٨ هـ

﴿ وتم طبعهُ في أول شهر مايو سنة ١٩٢٤ م ﴾


المتوسط
البحر
ليبيا
الأهرام
منف
بابل
مصر
وسينا
سنة ١٩٤٠ م

فهرست الكتاب

الفصل السابع صفحة ١٣٣ الى ١٥٨

اصلاح خطأ

صفحة	بند	سطر	خطأ	صواب
٥		حاشية	العيلات	العَلاَّت
٢٣	٣٧	٩	مجرهرة	مجوهرة
٣٠	٥٣	١	اقتصاد	اقتصاداً
٣٢	٥٩	٢	كتابتهم	كتابتها
٣٦		٢	لولاية	بولاية
٤٠		حاشية	خمسة عشر	خمسة عشرة
٤٤	١٩	١	يتحرش	يتعرض
٤٩		٤	يصلون	يصلُّون
٥١	٣٣	١	تحرش	تعرض
٦٨	١	٤	اكتساب به	اكتسابه
»	٢	٩	سنين	السنين
٦٩		١	أيٌّ	أيَّ
١٠٣	١٠	٢	فصارت من	فصارت تكتب من
١٣٨	١٢	٤	مسجد	معبد
١٤١	١٩	٣	للاريوسيين	بالاريوسيين

صفحة	بند	سطر	خطأ	صواب
١٤٧	١٩	٣	يتحرش	يتعرض
١٤٩	٤٢	١	يتحرش	يتعرض
«	٤٣	٢	لغنّ	لفنّ
١٦٥		٢	يجترء	يجترىء
«	١٦	٣	يستشفون	يستشفوا
١٦٩	٢٥	١٠	٥١٤	٤١٥
«	٢٦	٢	فيها	فيه
١٧١	٢٩	٦	الى الصحرآ	بالصحرآ
١٨١		٢	بأنهم لا	بألاَّ
١٨٦	٢٠	٥	عن	من
١٩٥	١٦	٣	باحتكار	حيفاستوس
«	«	٤	حيفاستوس	باحتكار
١٩٦	١٩	٦	لهم	بهم
٢٠١	٣٢	٦	بالمسبح	بالمسيح
٢٠٤	٤٠	٤٠	بأمره	يأمره
٢٠٥	٤٢	٣٠	مرسح	مرسحًا
٢٠٦	٤٦	٣	فار	فاروس